

الْبَيْتُ الْمَحْمُودُ الْإِسْلَامِيُّ

مَوَاقِفَ وَعِبَرَةٍ

(١١)

الخلفاء السُّلْطَانِيَّةُ

الجزء الثالث

تأليف

دكتور عبد الغني بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار النشر والنشر

للنشر والنشر

جدة

دار النسخة

للطباعة والنشر والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مواقف وعبد
في
معركة اليرموك

إستعداد الروم للمعركة :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله ابن قرط الشمالي « أن أهل إيلياء وأهل قيسارية بعد يوم «فحل» تواصلوا واجتمع رأيهم على أن يبعثوا وفدًا إلى ملك الروم هرقل بأنطاكية ، فيخبرونه بتمسكهم بأمره وإقامتهم على طاعته وبخلافهم العرب وكراهيتهم لهم ، ويسألونه المدد والنصر، وإلا أمكنوهم من أنفسهم .

فلما أن جاءه هذا رأى أن يبعث الجنود، ويقيم هو بأنطاكية فأرسل إلى رومية وإلى القسطنطينية وإلى من كان من جنوده وعلى دينه من أهل الجزيرة وأرمينية، وكتب إلى عمّاله أن يحشروا إليه كل من كان أدرك الحلم من أهل مملكته، فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني، فأقبلوا إليه ، وجاء منهم مالا تحمله الأرض .

وجاءه جرجير صاحب أرمينية في ثلاثين ألفًا .

وأناه أهل الجزيرة ، وفزع إليه أهل دينه، وجميع من كان في طاعته منهم .

ودعا باهان ، وكان من عظمائهم وأشرفهم، فعقد له على ثلاثمائة ألف رجل، ووجه معه قوّاده وجنوده، وأمر لهم بجوائز، وأعطى باهان مائتي ألف درهم، ثم أعطى الأمراء مائة ألف درهم لكل واحد منهم .

وقال لهم : إذا اجتمعتم فأميركم باهان ، وقال : يامعشر الروم، إن العرب قد ظهروا على سورية، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي

بلادكم، وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبُرّ والشعير والذهب والفضة حتى يسبوا الأخوات والأمهات والبنات والأزواج، ويتخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيداً، فامنعوا في حريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم. ثم وجههم إلى المسلمين» (١).

وهكذا سعى هرقل في جمع هذا الجيش العظيم وقرر أن يخوض آخر معركة مع المسلمين ليكون القرار النهائي بعدها، من تثبيت حكم الروم في سوريا بعد الانتصار أو الرحيل النهائي بعد الاندحار.

وبعد أخذ التجربة الكافية من المعارك السابقة تبين لهرقل أن الفرق شاسع بين جنود الروم وجنود المسلمين، حيث يتسم المسلمون بالشجاعة الخارقة، وسرعة الحركة، والتخطيط الحربي المتفوق، والتصرف الفوري عند حدوث المفاجآت، بينما لا تتوفر هذه الصفات العالية لدى جيش الروم.

ومن أجل أن يغطي هرقل هذا الفرق الشاسع فقد قرر أن يحشد كل مالدى الروم وأحلافهم من قوة حربية في الرجال والعُدَد، حتى يقابل الروم الفرد المسلم بعشرة أضعافه، فيشغلوا بذلك جيش المسلمين عن التمتع بالصفات السابقة التي يتفوقون بها.

ومن أجل ذلك سعى هرقل حثيثاً في جمع هذا الجيش الضخم.

مشورة أبي عبيدة مع قاداته :

قال الأزدي في سياق روايته : قدمت عيون من قبلهم [يعني المسلمين] فأخبروا بمقالة هرقل ملكهم، بمسيرهم إلينا وجمعهم لنا،

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٥١ - ١٥٣ ، وانظر تاريخ دمشق ٢ / ١٤٤ .

ومن أجلب علينا معهم ومن غيرهم ممن كان على دينهم وفي طاعتهم .

فلما جاء أبا عبيدة خبرهم وعددهم وكثرتهم ، وما أقبلوا به من غيرهم ممن كان على دينهم وطاعتهم من الجنود رأى ألا يكتم ذلك المسلمين ، وأن يستشيرهم فيه لينظر مايؤول إليه رأي جماعتهم .

فدعا رءوس المسلمين وذوي الهيئة والصلاح منهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال :

أما بعد ، فإن الله عز وجل وله الحمد قد أبلاكم أيها المؤمنون فأحسن البلاء عندكم ، وصدقكم الوعد ، وأعزكم بالنصر ، وأراكم في كل موطن ما تُسرون به ، وقد سار إليكم عدوكم من المشركين بعدد كثير ، ونفروا إليكم فيما حدثني عيوني نفيروا الروم الأعظم ، فجأؤوكم براً وبحراً ، حتى خرجوا إلى صاحبهم بأنطاكية ، ثم قد وجه إليكم ثلاثة عساكر ، في كل عسكر منها ما لا يحصيه إلا الله من البشر ، وقد أحبيت ألا أغركم من أنفسكم ، وألاً أطوى عنكم خبر عدوكم ، ثم تشيرون عليّ برأيكم ، وأشير عليكم برأيي ، فإنما أنا كأحدكم .

وقد تبادل أبو عبيدة المشورة مع قاداته واستقر رأيهم أخيراً على أن يغادروا مدينة «حمص» وأن يتشاوروا مع بقية القادة في الشام ثم يختاروا مكاناً مناسباً للاجتماع ومواجهة الروم فيه ، قال : ثم بعث إلى حبيب بن مسلمة ، وكان استعمله على الخراج ، فقال له : انظر ماكنت جبيته من الخراج من حمص فاحتفظ به حتى أمرك فيه بأمرى ، ولا تجيبن أحداً ممن بقي من الناس حتى أحدث إليك في ذلك .

فلما أراد أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة فقال : اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم ، فإنه لا ينبغي لنا إذلم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً ، وقل لهم : نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح لانرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه ، وإنما ردنا عليكم أموالكم أننا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم ، ولكننا نتنحى إلى بعض الأرض ونبعث إلى إخواننا فيقدموا علينا ثم نلقى عدونا فنقاتلهم ، فإن أظفرنا الله بهم وفينا لكم بعهدكم إلا أن لاتطلبوا ذلك .

فلما أصبح أمر الناس أن يرحلوا إلى دمشق .

ودعا حبيب بن مسلمة القوم الذين كانوا أخذ منهم المال فأخذ يرد عليهم ، وأخبرهم بما قال أبو عبيدة ، وأخذ أهل البلد يقولون : ردكم الله إلينا ، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم ، ولكن والله لو كانوا هم ماردوا علينا ، بل غصبونا وأخذوا مع ماقدروا عليه من أموالنا (١) .

هكذا عامل أبو عبيدة أهل حمص وهو في موقف القوة ، وكان باستطاعته أن لايرد عليهم ما أخذ منهم بل إن في استطاعته أن يسلبهم ما يملكون من أموال ، ولكنه الوفاء العظيم الذي لاينبع من مجرد صدوره من نفوس جُبِلت على مكارم الأخلاق ، بل من الوازع الديني والتقيّد الدقيق بأحكام الإسلام ، فأبو عبيدة يرى أن أخذ الأموال منهم يوقع المسلمين في الإثم لأن من شروط الجزية أن يتولى المسلمون

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٥٣ - ١٥٦ بتصرف ، وانظر تاريخ دمشق ١٤٥/٢ .

حماية أهل الذمة ، فإذا لم يستطيعوا حمايتهم فلاحق لهم فيها .

وكان لهذا الموقف العالي أثر عظيم في الدعوة إلى الإسلام حيث تعلّق أهل البلاد بحب المسلمين ، وتمنوا أن ينصرهم الله على أعدائهم ، كما جاء في رواية أخرى أنهم قالوا : لو لايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم (١) .

رسالة إلى عمر :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأُردي من خبر سفيان بن عَوْف بن معْقَل قال : بعثني أبو عبيدة بن الجراح ليلة غدا من حمص إلى دمشق ، وقال . انت أمير المؤمنين فأبلغه عني السلام ، وأخبره بما قد رأيت وعانيت . وبما قد جاءتنا به العيون ، وبما استقر عندك من كثرة العدو ، وبالذي رأى المسلمون من التنحي عنهم .

وكتب معه : أما بعد ، فإن عيوني قدمت عليّ من أرض عدوّنا ، من القرية التي فيها ملك الروم ، فحدثوني بأن الروم قد توجهوا إلينا ، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأمة قطّ كانت قبلنا ، وقد دعوت المسلمين ، وأخبرتهم الخبر ، واستشرتهم في الرأي ، فأجمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك ، وقد بعثت إليك رجلا عنده علم ما قبّلنا ، فسأله عما بدا لك ، فإنه بذلك عليم ، وهو عندنا أمين ، ونستعين بالله العزيز العليم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسلام عليك » .

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٨٧ .

قال سفيان : فلما قدمتُ على أمير المؤمنين سلّمت عليه ، فقال :
أخبرني عن الناس ، فأخبرته بصلاحهم ، ودفاع الله عنهم .

ثم أخذ الكتاب ، فقرأه ، فقال لي : ويحك ، ما فعل المسلمون ؟
فقلت : أصلحك الله ، خرجت من عندهم ليلاً من حمص ،
وتركتهم وهم يقولون نصلّي الغداة ، ثم نرحل إلى دمشق ، وقد أجمع
رأيهم على ذلك فكأنه كرهه حتى عرفت الكراهية في وجهه .

ثم قال : لله أبوك ، مارجوعهم عن عدوهم وقد أظفرهم الله
بهم في غير موطن من موطنهم ، وماتركهم أرضاً قد احتووها
وفتحها الله عليهم ، وصارت في أيديهم ؟ وإني أخاف أن يكونوا قد
أسأؤوا الرأي ، وجأؤوا بالعجز ، وجروؤا عليهم عدوهم .

قلت : أصلحك الله ، إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، وإن
صاحب الروم قد جمع لنا جموعاً لم يجمعها هو ولا أحد كان قبله
لأحد كان قبلنا ، ولقد أخبرنا بعض عيوننا أن عسكراً واحداً من
عساكرهم مروا بالعسكر في أصل جبل ، فهبطوا من الشية نصف النهار
إلى عسكرهم ، فما ظنك أصلحك الله ، بمن بقي منهم ؟

فقال : لولا أنني ربّما كرهت الرأي من رأيهم ، والشيء من
أمرهم فأرى الله يُخير لهم في عاقبة ذلك لكان هذا الرأي منهم أنا له
كاره .

ثم قال لي : أخبرني ، أجمع رأي جميعهم على التحويل ؟ [قال :
نعم] .

قال : فالحمد لله على ذلك ، فإني أرجو أن يكون الله جمع رأيهم على الخير ، إن شاء الله .

قال : فقلت ، ياأمير المؤمنين ، اشدد أعضاد المسلمين بمدد يأتيهم من قبلك قبل الوقعة ، فإن هذه الوقعة هي الفصيل فيما بيننا وبينهم ، فإن أظفرنا الله بهم وأظهرنا عليهم هذه المرة هلكت الروم هلاك عاد وثمود .

قال : فقال لي أبشر ، وبشر المسلمين إذا قدمت عليهم ، واحمل كتابي هذا إلى أبي عبيدة ، وإلى المسلمين ، واعلمهم أن سعيد بن عامر بن حذيم قادم عليهم بالمدد ، إن شاء الله (١) .

رسالة إلى أبي عبيدة :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، والمجاهدين في سبيل الله، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإنه بلغني توجّهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق، وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم وخلّيتموها لعدوكم ، وخرجتم منها طائعين ، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم ، وسألت رسولكم عن رأي من جميعكم ؟ فزعم أنه ذلك كان من رأي خياركم وأولى النهى منكم وجماعتكم ، فعلمت أن الله عزّ وجلّ لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد في العاجلة والعاقبة فهوّن ذلك عليّ ماكان دخلني من الكراهية قبل ذلك لتحويلكم .

(١) فتوح الشام / ١٥٦ - ١٥٨ .

وقد سألني رسولكم المدد لكم ، وأنا ممدّكم قبل أن يقرأ عليكم كتابي هذا، وأشخص لكم المدد من قبلي إن شاء الله ، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نهزم الجمع الكثير ، ولا بالجمع الكثير كان الله ينزل النصر عليهم ، ولربما خذل الله الجموع الكثيرة فوهنت، وقلت وفشلت ولم تغن عنهم فثمتهم شيئاً ، ولربما نصر الله العصابة القليل عددها على الكثير عددها من أعداء الله فأنزل الله عليكم نصره، وعلى المشركين من أعداء الله وأعداء المسلمين بأسه ورجزه والسلام عليكم (١) .

وهكذا كره عمر رضي الله عنه خروج المسلمين من حمص، ورأى أن ذلك يُجرئ العدو على المسلمين، ويرفع من معنويتهم وقدرتهم على قتال المسلمين لظنهم بأن المسلمين هربوا عن مواجهتهم، ولكن عمر مَحَى من نفسه تلك الكراهية لما علم أن ذلك التصرف كان عن إجماع من أهل الرأي فيهم بعد عقد مجلس للمشورة ، وهذا تقدير منه لاجتماع كلمة المسلمين وتفاؤل بأن ذلك هو الخير، لأن الله تعالى لا يجمع رأي أهل الرأي إلا على مافيه الخير والصواب .

وسيأتي أن رأي عمر هو رأي خالد رضي الله عنهما وأن مافي نفسه من كراهية تحوّل المسلمين من حمص قد زال حينما عرف أن ذلك عن مشورة أهل الرأي وإجماعهم .

وإننا حينما نتأمل في واقع الجيوش الإسلامية المتفرقة في الشام، وما قام به الروم من سرعة الزحف نحو المسلمين يتبين لنا أن مقام به

(١) فتوح الشام / ١٥٩ .

أبو عبيدة رضي الله عنه بعد مشورة أصحابه هو الصواب ، لأنه لو كتب لقادة المسلمين في الشام ليوافوه في حمص فإن هناك احتمالا كبيراً أن يصل إليه الروم وأن يحاصروا حمص قبل أن يأتي القادة البعيدون ، فيتفرق بذلك جيش المسلمين ، وهم أحوج ما يكونون إلى الاجتماع لمواجهة الروم الذين زحفوا مجتمعين .

مشورة أخرى مع القادة :

أخرج أبوإسماعيل الأزدي من خبر عبدالله بن قرط قال، لما صلينا الغداة بحمص خرجنا نسير مع أبي عبيدة حتى قدمنا دمشق، وبها خالد بن الوليد وقد تركنا أرض حمص، وليس فيها منا دينار بعد ما كنا افتتحناها، وأمنّا أهلها، وكتبنا بيننا وبينهم كتاباً، وصالحناهم عليها .

قال : فلما دخلنا دمشق أتانا خالد بن الوليد، وضممنا عسكرينا وعسكره فكان واحداً ، فخلا أبو عبيدة بخالد، فأخبره الخبر، وبمشورة الناس عليه وبالرحلة ، وبمقالة العبيسي في ذلك^(١) .

فقال خالد : أما إنه لم يكن الرأي إلا الإقامة بحمص حتى نناجزهم فيها ، فأما إذا اجتمع رأيكم على أمر واحد فإنني لأرجو ألا يكون الله جمع رأيكم إلا على ما هو خير لكم .

فأقام أبو عبيدة بدمشق يومين ، وأمر سويد بن كلثوم القرشي ، أن يردّ على أهل دمشق ما كان اجتبى منهم ، الذين كانوا أمنوا وصولحوا ، فردّ عليهم ما كان أخذ منهم .

(١) يعني ميسرة بن مسروق العبيسي ، وكان أشار بالرحيل واجتماع جيوش المسلمين في مكان واحد ووافقه على ذلك بقية أهل الرأي .

وقال لهم المسلمون : نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم، ونحن معيدون لكم أماناً ومتممون ما كنا صالحناكم عليه (١) .

ثم إن أبا عبيدة جمع أصحابه، فقال لهم : ماذا ترون؟ أشيروا عليّ .

فقال يزيد بن أبي سفيان : أرى أن تخرج حتى تنزل الجابية، ثم تبعث إلى عمرو بن العاص فيقدم عليك بمن معه من المسلمين، ثم نقيم للقوم حتى يقوموا علينا، فنقاتلهم ونستعين الله عليهم .

فقال شرحبيل بن حسنة، ولكني أرى إذ خيلنا لهم عمّا خيلنا من أرضهم أن ندعها كلها في أيديهم، ونخرج لهم عنها، ونترك التخوم (٢) بيننا وبين أرضهم ، فدنونا من خيلتنا ومن مددنا ، فإذا أئانا من المدد ما نرجوا أن نقوى به على عدونا قاتلناهم إن هم أتونا، وإلا أقدمنا عليهم إن هم أقاموا عنا .

وقال رجال من المسلمين : هذا - أصلحك الله - رأي حسن، فاقبله وارجع إليه ، فإن عاقبته إن شاء الله راجعة إلى خير .

قال معاذ بن جبل : أصلحك الله، وهل يلتمس هؤلاء من عدوهم أمراً أضّر عليهم ولا أشدّ مما تريدون بأنفسكم؟ تخلّون لهم عن أرض قد افتتحها الله عليكم وقَتَل فيها ملوكاً من ملوك الروم وصناديدهم، وأهلك الله فيها جنودهم العظام، فإذا خرج المسلمون

(١) وهكذا عامل أبو عبيدة أهل دمشق كما عامل أهل حمص، وقد بينا سابقاً أن ذلك كان مثالا للورع والتقوى والتخلق بكارم الأخلاق .

(٢) التخوم بالضم الحدود .

منها، وتركوها لهم ، وكانوا فيها على مثل حالتهم الأولى التي كانوا عليها ، فما أشد على المسلمين دخولها بعد الخروج منها، وهل يصلح لكم أن تخرجوا منها وتدعوها، وتدعوا اللقاء والأردن، وقد اجتبيتم خراجها إلا أن تدفعوا عنهم ؟ أما والله لئن خرجتم منها ثم أردتم دخولها بعد الخروج منها لتُكابدنّ من ذلك مشقة .

فقال أبو عبيدة : صدق وبرّ ، ما ينبغي لنا أن نترك قوما قد اجتبيناهم خراجهم ، وعقدنا لهم العهد حتى نعذر إلى الله في الدفع عنهم ، فإن شئتم نزلنا الجابية ، وبعثنا إلى عمرو بن العاص يقدم علينا، ثم أقمنا للقوم حتى نلقاهم بها .

فقال له خالد بن الوليد : كأنك إذ كنت بالجابية كنت على أكثر مما أنت عليه مكانك هذا الذي أنت به .

كتاب من عمرو بن العاص :

قال : فإنهم لكذلك يجيلون الرأي إذ قدم على أبي عبيدة عبدالله ابن عمرو بن العاص بكتاب من أبيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن أهل إيليا، وكثيراً ممن كنا صالحناهم من أهل الأردن قد نقضوا العهد فيما بيننا وبينهم، وذكروا أن الروم قد أقبلت إلى الشام بقضّها وقضيضها^(١) ، وأنكم قد خلّيتم لهم عن الأرض ، وخرجتم منها، وأقبلتم منصرفين عنها، وقد جرّاهم ذلك عليّ وعلى من قبلي من المسلمين، وقد تراسلوا وتواثقوا، وتعاهدوا ليسيرنّ إليّ ، فاكتب إليّ برأيك، فإن كنت تريد

(١) أي جموعها .

القدوم عليّ أقمت لك حتى تقدم، وإن كنت تريد منزلاً من الشام أو من غيرها وأن أقدم عليك فأعلمني برأيك أوافك فيه، فإنني صائر إليك أينما كنت، فابعث إليّ مدداً أقوى بهم على عدوّي وعلى ضبط ما قبلي، فإنهم قد أرجفوا بنا واغتمزوا فينا، واستعدوا لنا، ولو يجدون فينا ضعفاً أو يرون فينا فرصة ماناظرونا، والسلام عليك^(١).

كتاب من أبي عبيدة إلى عمرو :

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد قدم عليّ عبد الله بن عمرو بكتابك تذكر فيه إرجاف المرجفين واستعدادهم لك، وجرأتهم عليك، للذي بلغهم من انصرافنا عن الروم، وما خلّينا لهم من الأرض، وإن ذلك والحمد لله لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم ولا وهن من عدوّهم، ولكنه كان رأياً من جماعتهم كادوا به عدوّهم من المشركين، ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم، وليجتمع بعض من المسلمين إلى بعض، ويجمعوا من أطرافهم، وينضم إليهم من كان قريبهم، ويتظرون قدوم أمدادهم عليهم، ثم يناهضونهم إن شاء الله.

وقد اجتمعت خيلهم، وتآمت فرسانهم، ووثقنا بنصر الله أوليائه، وإنجاز مواعده، وإعزاز دينه، وإذلال المشركين حتى لا يمنع أحد أمه، ولا خليلته ولا نفسه حتى يتوغلوا في رؤوس الجبال، ويعجزوا عن منع الحصون ويجنحوا للسلم، ويلتمسوا الصلح، وسنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

(١) فتوح الشام / ١٦٠ - ١٦٢ .

ثم أعلم من قبلك من المسلمين أني قادم عليهم بجماعة أهل الإسلام، إن شاء الله، فليحسنوا بالله الظن، ولا يجدن أهل حربكم وعدوكم فيكم ضعفا ولا وهنا ولا فشلا، فيغتمزوا فيكم، ويتجرؤوا عليكم، أعزنا الله وإياكم بنصره، وألبسنا وإياكم عافيته وعفوه، والسلام عليك .

وقال أبو عبيدة لعبد الله بن عمرو : أقرئ أباك السلام، وأخبره أني في أثرك، وأعلم ذلك المسلمين، وكن يا عبد الله بن عمرو ممن يشدد الله به ظهور المسلمين، ويحسن به ظنهم، ويستأنسون به، فإنك رجل من الصحابة ، وقد جعل الله للصحابة بصحبته رسول الله فضلا على غيرهم من المسلمين، ولا تتكل في ذلك على أبيك، وكن أنت في جانب تحرض الناس، وتعدهم بالنصر، وتأمرهم بالصبر، ويكون أبوك يفعل ذلك في جانب آخر .

فقال : إنني أرجو أن يبلغك من ذلك إن شاء الله مايسرك .

قال : ففعل ذلك هو وأبوه ، فكان لهما أجراً وغناء، ونكاية في المشركين وشدة وقوة على عدو المسلمين .

ثم خرج عبد الله بكتاب أبي عبيدة حتى قدم به على أبيه، فقراه على الناس .

ثم قام عمرو بن العاص، وجمع إليه من كان قبله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وكان مما قال : ألا ولا يبقين رجل من أهل عهدنا لإلتهياً واستعدت حتى يسير معي إلى أهل

إيلياء فإنني أريد المسير إليهم والنزول بساحتهم، ثم لا أزيّلهم حتى أقتل مقاتلتهم، وأسبي ذراريهم أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون .
ثم نادى في المسلمين ، أن ارتحلوا إلى إيلياء، فسار نحواً من ميلين قبل أرض إيلياء ، ثم نزل وعسكر، ثم قال لأهل الأردن: أخرجوا إلينا الأسواق .

ونادى مناديه، ألا برئت الذمة من رجل من أهل الصلح لم يخرج بسلاحه حتى يحضر معنا عسكرنا ، وينظر مانأمره به .

ثم أمر فاجتمع إليه أهل الصلح كلهم ، فخرجوا بعدّتهم وسلاحهم، فوجههم مع ابنه عبد الله فقدمهم ، وأمرهم أن يعسكروا ونزل عبد الله معهم في خمسمائة رجل من المسلمين .

ولما أراد بذلك أن يشغل أهل الأردن عن الإرجاف^(١)، وأن يبلغ أهل إيلياء أنه يريد المسير إليهم والنزول عليهم، فيرعب قلوبهم، ويشغلهم في أنفسهم وحصونهم من الغارة عليهم، وأن يتعاطوا شيئاً مما في أيديهم .

فخرج التجار من أهل الأردن ومن كان فيها من أهل إيلياء عند حميم أو ذي قرابة، فلاحقوا بإيلياء، وقالوا لهم : هذا عمرو بن العاص قد أقبل نحوكم وصار إليكم بالناس .

فاجتمعوا من كل مكان وتراسلوا، وجعل لا يأتيهم أحد من قبل الأردن إلا أخبرهم بمعسكره، فأيقنوا أنه يريدهم، وكانوا من ذلك في هول شديد، وزادهم خوفاً ووجلاً^(٢) .

(١) يعني عن الخوض في أخبار الفتنة .

(٢) فتوح الشام / ١٦٢ - ١٦٥ .

رسالة من عمرو بن العاص :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن العاص إلى بطارقة إيلياء ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله العظيم الذي لا إله إلا هو ، ومحمد ﷺ أما بعد ، فإننا نشني على ربنا خيراً ، ونحمده حمداً كثيراً كما رحمنا بنبيه وشرفنا برسالته ، وأكرمنا بدينه ، وأعزنا بطاعته ، وأكرمنا بتوحيده والإخلاص بمعرفته ، فلسنا والحمد له نجعل له نداً ، ولا نتخذ من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذن شططا ، سبحانه وبحمده جل ثناؤه ، والحمد لله الذي جعلكم شيعا وجعلكم في دينكم أحزابا بكفركم بربكم ، فكل حزب بما لديهم فرحون ، فمنكم من يزعم أن لله ولداً ، ومنكم من يزعم أن الله ثاني اثنين ، ومنكم من يزعم أن الله ثالث ثلاثة ، فبعداً لمن أشرك بالله وسُحُقا ، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، والحمد لله الذي قتل بطارقتكم ، وسلب عزكم ، وطرده من هذه البلاد ملوككم ، وأورثنا أرضكم ودياركم وأموالكم ، وأذلكم بكفركم بالله ، وترككم مادعوناكم إليه من الإيمان بالله ورسوله ، فأعقبكم الله الجوع والخوف والذل بما كنتم تصنعون ، فإذا أتاكم كتابي هذا فاسلموا تسلموا ، وإلا فأقبلوا إلينا حتى أكتب لكم كتاباً أماناً على دماءكم وأموالكم ، وأعقد لكم عقداً ، تؤدون إليّ الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإلا فوالله الذي لا إله إلا هو لأرمينكم بالخيـل بعد الخيل ، وبالرجال بعد الرجال ، ثم لأقلع عنكم حتى أقتل المقاتلة ، وأسبي الذرية ، وتكونون كأمة كانت فأصبحت كأنها لم تكن (١) .

(١) فتوح الشام / ١٦٥ - ١٦٦ .

وهكذا خدع عمرو بن العاص أولئك الأعداء ومكر بهم ، حيث أظهر لهم أنه قد جمع جيشه وأنصاره لقتالهم ، بينما هو فعل ذلك لِيَبْقَى بسلام إلى أن يصل جيش المسلمين ، قبل أن ينتقض عليه أهل العهد فيكونوا مع أعدائه في بيت المقدس ثم يحصروه عن المسلمين ، إذا شعروا بضعفه .

وهذا مثل من الأمثلة التي برز فيها دهاء عمرو وظهرت حكمته .
قال : وأرسل الكتاب إليهم مع رجل نصراني على دينهم وقال له : عَجِّلْ عليَّ فَإني إِنَّمَا انتظرُكَ .

فلما قدم عليهم قالوا له : ويحك ماوراءك؟ قال : لا أدري إلا أن الرجل قد بعثني إليكم بهذا الكتاب ، وقد وجَّهَ عسكره نحوكم ، وقال : ما يمنعني من المسير إليهم إلا انتظاري رجوعك .

قالوا له : أَنْظِرْنَا ساعة من النهار ، فَإنا ننتظر عيونًا لنا تقدم علينا من قِبَل أمير العرب الذي بدمشق ، ومن قبل جند الملك الذي قد أقبل إلينا ، فننتظر ما يأتينا به ، فَإن ظننَّا أن لنا بالعرب قوة لم نصلحهم ، وإن خشينا ألا نقوى عليهم صنعنا ماصنع أهل الأردن وغيرهم ، فما نحن إلا كغيرنا من أهل الشام .

فأقام العليج حتى أمسى . ثم إن رسول أهل إيلياء الذي كان بعثوه عينا لهم أتاهم ، فأخبرهم أن باهان قد أقبل من قِبَل ملك الروم في ثلاثة عساكر ، في كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل ، وأن العرب لما بلغهم ماسار إليهم من تلك الجموع علموا أنه لا قِبَل لهم بما جاءهم ، فانصرفوا راجعين ، وقد كان أوائل العرب دخلوا أرض

قنسرين فأخرجوهم منها، ثم أتوا أرض حمص فأخرجوهم منها، ثم أتوا أرض دمشق فأخرجوهم منها، ثم أقبلت العرب نحو الأردن نحو صاحبهم هذا الذي كتب إليكم، والروم في آثارهم يسوقونهم سوقا عنيفا سريعا إلى ما قبلكم من البلاد .

فتباشروا بذلك، وسرّوا به، ودعوا العليج الذي بعث به عمرو ابن العاص فقالوا له : اذهب بكتابنا إلى صاحبك، وكتبوا معه :

أما بعد، فإنك كتبت إلينا كتابا تزكى فيه نفسك، وتعيب مانحن عليه، والقول بالباطل لا ينفع به أحد نفسه، ولا يضر به عدوه، وقد فهمنا مادعوتنا إليه، وهؤلاء ملوكنا وأهل ديننا قد جاؤوكم، فإن أظهرهم الله عليكم فذلك بلاؤه عندنا في القديم، وإن ابتلانا بظهوركم علينا، فلعمري لننقُرُ لكم بالصغار، ومانحن إلا كمن ظهرتم عليهم من إخواننا، ثم دانوا لكم فأعطوكم ما سألتهم .

وقدم الرسول بهذا الكتاب إلى عمرو، فقال له عمرو: ما حبسك؟ فأخبره الرسول بالخبر . إلى أن قال: فلم يكن إلا يومه ذلك حتى قدم خالد بن الوليد في مقدّمة أبي عبيدة، وكان أبو عبيدة قد خرج من أرض دمشق بالمسلمين إلى بلاد الأردن، وأمر عبد الرحمن بن حنبل فنادى الناس أن يسيروا إلى بلاد الأردن، وأمر خالد بن الوليد، فتقدّم في مقدمته حتى نزل اليرموك، وأقبل عمرو حتى نزل معه^(١).

مثل من فساد قادة الروم :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي، وحدثني أبو الجهم

(١) فتوح الشام / ١٦٦ - ١٦٨ .

الأزدي عن رجل من تنوخ كان مع باهان يُكنى أبا بشير قال ، كنت نصرانيا ، فنصرت النصرانية على العرب ، وأقبلتُ مع الروم ، فجعلنا لائمرًا بأحد من أهل البلد إلا وجدناهم أحسن شيء ثناء على العرب في كل شيء من أمرهم وفي سيرتهم .

قال : وأقبلت الروم فجعلوا يفسدون في الأرض ، ويسئون السيرة ، ويعصون أميرهم حتى ضجَّ منهم الناس ، وشكاهم أهل القرى ، وجعلوا لا يفيقون من شرب الخمر والزنا ، ولا تزال جماعة من أهل الذمّة يجيئون إلى ملكهم ومعهم الجارية قد افتضت ، وجماعة يشكون أن أغنامهم قد ذبحت وجماعة يشكون أنهم خربوا وسلبوا .

فلما رأى باهان ذلك وما يصنعون قام فيهم خطيبا فقال :

يامعشر أهل هذا الدين ، إن حجة الله عليكم عظيمة ، إنه قد بعث إليكم رسولا ، وأنزل عليكم كتابا ، وكان رسولكم لا يريد الدنيا ، وزهدكم فيها ، وأمركم ألا ترغبوا فيها ولا تظلموا أحدا ، فإن الله لا يحب الظالمين ، وأنتم الآن تظلمون ، فماعدركم غدا عند الله وقد تركتم أمره وأمر نبيكم وما أتاكم به من كتاب ربكم ؟ وهذا عدوكم قد نزل بكم ، يقتلون مقاتلتكم ويسبون ذراريكم ، وأنتم تعملون بالمعاصي ، فلا تنزعون منها خشية العقاب ، فإن نزع الله سلطانكم من أيديكم وأظهر عليكم عدوكم فمن الظالم إلا أنتم ؟ فاتقوا الله وانزعوا عن ظلم الناس .

فقام إليه رجل من أهل البلد ، فشكا إليه مظلمة ، قال : فتكلم

بلسانهم وأنا أفقه كلامهم ، فقال : أيها الملك ، عشت الدهر ، ووقيناك بأنفسنا مكروه الأحداث ، إني امرؤ من أهل البلد ، من أهل الذمة ، وكانت لي غنم ، أظنها مائة شاة أو تنقص قليلا ، وكان فيها ابن لي يرعاها ، فمرّ بها عظيم من عظماء أصحابك ، فضرب خباءه إلى جنبها ، ثم أخذ حاجته منها ، ثم أنهب بقيتها أصحابه ، فجاءته امرأتي ، وابنتي ، فشكت إليه انتهاب أصحابه غنمي ، وقالت : أما ما أخذت لنفسك فهو لك ، وأما ما أخذ أصحابك فابعث إليهم فليردّوا علينا غنمنا .

فلما رآها أمر بها ، فأدخلت بناءه ، فطال مكثها عنده ، فلما رأى ذلك ابنها دنا من باب البناء ، فطالع ، فإذا هو بصاحبه ينكح أمه أو أخته ، وهي تبكي ، فصاح الغلام ، فأمر به فقتل ، فأخبروني ذلك فأقبلت إلى ابني ، فأمر بعض أصحابه فشدوا عليّ بالسيف ليضربوني ، فاتقيتهم بيدي فقطعوها .

فقال له باهان : أفتعرفه ؟ قال : نعم . قال : وأين هو ؟ قال : هو هذا العظيم من عظمائكم .

قال : فغضب ذلك العظيم الذي فعل بالرجل ما فعل ، وغضب له ناس من أصحابه ، وكان فيهم ذا شأن وشرف ، فأقبل ناس من أصحابه أكثر من مائتي رجل فشدوا على المستعدى ، فضربوه بأسيا فهم حتى مات ، ثم رجعوا وباهان ينظر ما صنعوا .

فقال بلسانه : العجب كل العجب ، كيف لا تُهدّ الجبال وتتفجر البحار ، وتزول الأرض ، وترعد السماء لهذه الخطيئة التي عملتموها ،

وأنا أنظر لأعمالكم العظام التي تعملونها ، وأنا أرى وأسمع ، إن كنتم تؤمنون بأن هؤلاء المستضعفين المظلومين إليها يتتصر لهم وينصف المظلوم من الظالم فأيقنوا بالقصاص ، ومن الآن يعجل لكم بالهلاك ، وإن كنتم لاتؤمنون بذلك فأنتم والله عندي شر من الكلاب وشر من الحمير ، ولعمري إنكم لتعملون أعمال قوم لايؤمنون ، ولقد سخط الله أعمالكم ، وليكلنكم إلى أنفسكم ، وأما أنا فإني أشهد أنني بريء من أعمالكم ، وسوف ترون عاقبة الظلم ، وإلى أي مصير تصيرون ، ثم نزل (١) .

فهذه القصة تبين ماكان يزاوله طغاة الروم من الظلم الشنيع ، فهذا الأمير الرومي قد سحق أسرة من أسر أهل الشام ، وارتكب معها ثلاث جرائم : نهب المال ، والزنى ، والقتل ، حيث كان هو وأمثاله يعتبرون المستضعفين غنيمة لمن وجدهم لأنهم لاناصر لهم من قوى البشر ، أما رب البشر فإنهم لايؤمنون به إيماناً يحرك مشاعرهم ويحكم تصرفاتهم . . إنهم يؤمنون بوجوده ولكن لاوجود له في قاموس حياتهم ، وبالتالي فإنهم يفقدون الوازع الديني الذي يترتب على الإيمان الحي بالله تعالى واطلاعه على خلقه وهيئته عليهم ومحاسبته إياهم ثم جزائه إياهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولذلك فإن هؤلاء الذين فقدوا العقول السليمة يتصرفون تصرف البهائم التي لايردعها رادع عن شهوة ولاتخاطب إلا بقرونها ومخالبتها وقواطع أسنانها ، فلذلك يأكل القوي الضعيف في تلك المجتمعات كما هو الحال في حظائر الحيوانات والغابات .

(١) فتوح الشام / ١٧٥ - ١٧٧ .

ولقد كان باهان واسع العقل عظيم الإدراك حينما أدرك العلاقة المباشرة بين الأخلاق وتقرير مصير الدول والجيوش ، فأبان أن مرتكبي الظلم ليسوا جديرين بالنصر على الأعداء .

ولقد كان هذا الفساد الذي ساد معسكره الكبير من أقوى مواجهه من التحطيم المعنوي والفرع الشديد من الانهزام والاندحار على يد أمة الأخلاق والعدل .

وسياتي مزيد بيان لهذا الأمر عند عرض كلام باهان في الاستشهاد بهذه القصة وما كان يعانيه من التشاؤم القاتل بسبب فشور الظلم في جيشه .

رسالتان بين أبي عبيدة وعمر :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قرط : أن معاذ بن جبل ورجالا معه من المسلمين قالوا لأبي عبيدة ابن الجراح حين أقبل من دمشق إلى معسكره باليرموك : ألا تكتب إلى أمير المؤمنين تُعلمه علم هذه الجيوش التي قد جاءتنا ، وتسأله المدد؟ قال : بلى ، وكتب إليه .

أما بعد ، أخبر أمير المؤمنين - أكرمه الله - أن الروم نفرت إلى المسلمين برأ وبحرأ ، ولم يخلفوا وراءهم رجلا يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا ، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة ، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع ، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة ، وجاؤونا وهم نحو من أربعمئة ألف رجل ، وأنه لما بلغني ذلك من أمرهم كرهت أن أغر المسلمين من أنفسهم ، أو أكتهم ما بلغني عنهم .

فكشفت لهم عن الخبر، وشرحت لهم من الأمر، وسألتهم عن الرأي، فرأى المسلمون أن ينتحوا إلى أرض من أرض الشام، ثم انضم إلينا أطرافنا وقواصينا، وتكون بذلك المكان جماعتنا، حتى يقدم علينا من قبل أمير المؤمنين المدد لنا، فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال، وإلا فاحتسب أنفس المؤمنين إن هم أقاموا، ودينهم منهم إن هم تفرقوا، فقد جاءهم مالا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته، أو يأتيهم بغياث من قبله، والسلام عليك.

فلما أتاه الكتاب دعا عمر المهاجرين والأنصار، فقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فبكى المسلمون بكاء شديداً، ورفعوا أيديهم ورغبتهم إلى الله أن ينصرهم ويعافيهم، وأن يدفع عنهم، واشتدت شفقتهم عليهم وقالوا: يا أمير المؤمنين، ابعثنا إلى إخواننا، وأقر علينا أميراً ترضاه لنا، أو سر بنا أنت، فو الله إن أُصيبوا فما في العيش خير بعدهم.

قال: عبد الله بن قرط فكل من قدمت عليه من المهاجرين والأنصار ظهر منهم الجزع والشفقة على المسلمين مخافة الهلاك عليهم، ولم أر أحداً كان أشد جزعاً ولا أظهر شفقة من عبد الرحمن ابن عوف، ولا أكثر مقالة: سر بنا يا أمير المؤمنين، فإنك لو قدمت الشام لقد شدَّ الله قلوب المؤمنين وأرعب قلوب الكافرين.

قال: فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يقيم عمر، ويبعث المدد، ويكون رداءً للمسلمين.

فقال عمر لعبد الله بن قرط: كم بين المسلمين وبين الروم يوم خرجت إلي؟ قال: قلت ما بين أدناهم وبين المسلمين ثلاث أو أربع

ليال ، وبين جماعتهم وجماعة المسلمين خمس ليال .

فقال : هيهات ، متى يأتي هؤلاء غيائنا .

قال : فكتب عمر إلى أبي عبيدة :

أما بعد ، فقد قدم عليّ أخو ثماله بكتابك تخبرني فيه بنفير الروم إلى المسلمين برّاً وبحراً ، وبما جاشوا عليكم من أساقفتهم وقسّسهم ورهبانهم ، وإن ربنا المحمود عندنا والصانع لنا ، والعظيم ذو المنّ والنعمة الدائمة علينا ، قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حيث بعث محمداً ﷺ بالحق وأعزه بالنصرة ، ونصره بالرعب على عدوه ، وقال : وهو لا يخلف الميعاد ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) فلا تهولنك كثرة ماجاءك منهم ، فإن الله منهم برئ ، ومن برئ الله منه كان قمناً ألا تنفعه كثرة ، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذه ، ولا توحشك قلة المسلمين ، فإن الله معك وليس قليلاً من كان الله معه ، فأقم بمكانك الذي أنت به حتى تلقى عدوك وتناجزهم ، وتستظهر بالله عليهم ، وكفى به ظهيراً وولياً ونصيراً .

وقد فهمت مقالتك « احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ، ودينهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم مالا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته ، أو يأتيهم بغياث من قبله » وأيم الله لولا استنناؤك بهذا لقد كنت أسأت ، ولعمري إن أقام لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا لما عند الله خير للأبرار ، ولقد قال الله عز وجل : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

(١) سورة الصف / ٩ .

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١﴾ فطوبى للشهداء ، ولمن عقل عن الله ممن معك من المسلمين لأسوة بالمصرّعين حول رسول الله ﷺ في موطنه ، فما عجز الذين قاتلوا في سبيل الله ، ولاهابوا الموت في جنب الله ، ولا وهن الذين بقوا من بعده ، ولا استكانوا لمصيبتهم ، ولكنهم تأسّوا بهم وجاهدوا في الله من خالفهم منهم وفارق دينهم .

ولقد أثنى الله على قوم بصبرهم فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) ، فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح ، وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة .

واقراً كتابي هذا على الناس ، ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله ، وليصبروا كيما يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، فأما قولك إنه قد جاءهم ما لا قبل لهم به فإن لا يكن لكم بهم قبل فإن لله بهم قبلاً ، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرا ، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيئات ماقد أبادونا وأهلكونا ، ولكن نتوكل على الله ربنا ، ونبرأ إليه من الحول والقوة ، ونسأله النصر والرحمة ،

(١) سورة الأحزاب ، آية (٢٣) .

(٢) سورة آل عمران الآيات (١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨) .

وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال، فإخلصوا لله نياتكم،
وارفعوا إليه رغبتكم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

وإنا لنلاحظ في كتاب عمر رضي الله عنه تركيزاً قوياً على توحيد
الله تعالى بالتذكير بلزوم استصحاب التوكل عليه واستمداد النصر منه
وشكره على نعمه ، والشعور القوي بأن العامل الأعلى في النصر هو
استحضار المجاهدين معية الله تعالى بنصره وتأييده، وعدم النظر لكثرة
الأعداء ، لأن الله تعالى قد تولى عنهم، ومن تولى الله عنه فلا قوة
له وإن ملأ الأرض عدداً وعتاداً .

قال عبد الله بن قريط : دفع إليّ عمر هذا الكتاب وأمرني أن
أعجل المسير، وقال: إذا قدمت على المسلمين فسر في صفوفهم،
وقف على أهل كل راية منهم ، وأخبرهم أنك رسولي إليهم، وقل
لهم: عمر يقرئكم السلام، ويقول لكم : يا أهل الإسلام اصدقوا
اللقاء ، وشدوا عليهم شدّ الليث، واضربوا هامتهم بالسيوف،
وليكونوا أهون عليكم من الذر ، فإننا قد كنا علمنا أنكم عليهم
منصورون ، فلا تهوكنكم كثرة عدوكم، ولا تستوحشوا لمن لم يلحق
بكم منكم .

قال: فركبت راحلتي ، وأقبلت مسرعا أتخوف أن لا أدرك
الناس، وأن تفوتني الواقعة .

قال: فانتهيت إلى أبي عبيدة يوم دخل سعيد بن عامر بن حذيم
الجمحي في ألف رجل من المسلمين من قبل عمر على أبي عبيدة في
عسكره .

قال: فشجع ذلك المسلمين ، وسرُّوا بمددهم ، وقدمت بكتاب عمر رضي الله عنه على أبي عبيدة ، فقرأه على الناس ، فسروا برأيه لهم ، وبما أمرهم به من الصبر ، وبما بشرهم به من الفتح ، وبما رجا لهم في ذلك من الأجر (١) .

وهكذا رأينا كيف أن المسلمين تهيَّأوا من لقاء عدوهم مع أن عددهم يقارب الأربعين ألفاً ، وكانت أكثر أصوات القادة تنادي بالرحيل عن الشام حتى يتقوى المسلمون ثم يعودون لمناجزة أعدائهم .

وإذا ما قارنا بين أحداث هذه المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم بأحداث معركة القادسية الفاصلة بين المسلمين والفرس نجد أن المسلمين وعددهم ثلاثون ألفاً . قابلوا الفرس وعددهم مائتا ألف ، ولم يتهيبوا منهم . ولم يلحوا في طلب المدد ، ولم يفكروا بالتحول من العراق حتى يكمل استعدادهم ، والمسلمون هم المسلمون في ذلك التاريخ سواء في الشام أو في العراق ، بل إن كثيراً من أبطال العراق كانوا مع خالد بن الوليد في الشام وحضروا معركة اليرموك من أمثال القعقاع ابن عمرو ومذعور بن عدي ، ثم انصرفوا بعد ذلك إلى العراق وحضروا آخر معركة القادسية .

وهذا دليل واضح على أن معركة اليرموك كانت أضخم بكثير من معركة القادسية .

والآن وبعد أن تبين لنا حجم هذه المعركة فماذا كان عدد جنود الروم؟

(١) فتوح لشام / ١٨٠ - ١٨٤ .

لقد تبين لنا من كتاب أبي عبيدة السابق إلى أمير المؤمنين أن عدد الروم كانوا نحو أربعمئة ألف ، وقد جاء ذلك في رواية أخرجه الأزدي عن عبد الله بن قرط الشمالي وهو صحابي شهد المعركة .

ويؤيد ذلك ما أخرجه الأزدي أيضاً عن أبي جهضم الأزدي عن رجل من الروم أسلم وحسن إسلامه قال : كنت مع باهان - يعني قائد الروم - في عسكرهم ذلك . . إلى أن قال : قال باهان : فكيف ترون بقتالهم فإننا أكثر من عشرة أضعافهم ، نحن نحو من أربعمئة ألف ، وهم نحو من ثلاثين ألفاً أو أقل أو أكثر قليلاً (١) .

فهذا دليل على أن جيش الروم يقارب أربعمئة ألف .

كما جاء في رواية ثالثة أخرجه الأزدي أيضاً عن أبي خدّاش عن سفيان بن سليم عن عبد الله بن قرط الشمالي : وفيها أن أهل إيلياء - القدس - أرسلوا رسولا ينظر لهم جيش الروم فأخبرهم أن باهان قد أقبل من عند هرقل في ثلاثة عساكر كل عسكر منها أكثر من مئة ألف مقاتل (٢) .

فهذا يدل على أن جيش الروم ما بين ثلاثمئة وأربعمئة ألف .

أما الرواية التي تقول إن جيش الروم كان مئة ألف فهي مستبعدة لأن المسلمين قابلوا في أجنادين مئة ألف من الروم ولم يأبها بهم مع أن هذه المعركة كانت هي الأولى من المعارك الكبيرة .

(١) فتوح الشام / ٢٠٨ ، وقد جاء في روايتين للطبري أن عدد المسلمين ستة وثلاثون ألفاً

- تاريخ الطبري ٢٩٢/٣ - ٣٩٤ - .

(٢) فتوح الشام / ١٦٧ .

وأما القول بأنهم كانوا مائتي ألف أو مائتين وأربعين ألفاً فهما محتملان لكن القول الأول قد روي من طرق متعددة ، كما أن الصفات التي أطلقت على جيش الروم تدل على أنهم كانوا أكثر من هذا العدد، حيث جاء في كتاب أبي عبيدة « وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعه لأمة قط كانت قبلنا » و « أن الروم نفرت إلى المسلمين برأ وبحرأ ، ولم يخلفوا وراءهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا » .

ومن المستبعد أن أمة عظيمة كالروم تكون طاقتها الكاملة من الرجال في حدود هذا العدد، فتبين أن القول الراجح أنهم كانوا نحواً من أربعمئة ألف كما ذكر أبو عبيدة رضي الله عنه .

ومما يدل على كثافة جيش الروم إلى حد غير معتاد ما ذكره الأزدي في رواية له عن قسامة بن زهير عن رجل من الروم كان يدعى «جرجه» - وقد أسلم وحسن إسلامه - قال: كنت في ذلك الجيش الذي بعثنا ملك الروم من أنطاكية مع باهان، فأقبلنا ونحن لا يحصي عددنا إلا الله، ولا نرى أن لنا غالباً من الناس .

قال: ولحق بنا كل من كان على ديننا من النصارى ، حتى إن كان الراهب لينزل من صومعته، وقد كان فيها دهرأ طويلاً من دهره، فيتركها وينزل إلينا فيقاتل معنا غضباً لدينه ومحاماةً عليه (١) .

مكان المعركة والتقاء الجيشين :

ذكر الإمام ابن جرير الطبري من رواية سيف بن عمر عن عدد

(١) فتوح الشام / ١٦٨ - ١٦٩ .

من الشيوخ أن هرقل كتب إلى قادة جيشه يقول لهم : انزلوا بالروم منزلاً واسع العطن ، واسع المطرد ، ضيق المهرب .

قالوا : ففعلوا فنزلوا الواقصة ، وهي على ضفة اليرموك ، وصار الوادي خندقاً لهم .

وانتقل المسلمون عن معسكرهم الذي اجتمعوا به ، فنزلوا بحذائهم ، على طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم ، فقال عمرو ابن العاص : أيها الناس أبشروا ، حُصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير (١) .

وهذا يدل على خبرته وبصره بأمور الحرب .

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله ابن قرط قال : لما نزلت الروم منزلهم الذي نزلوا به دسنا إليهم رجالاً من أهل البلد ، كانوا نصارى فأسلموا وحسن إسلامهم ، وأمرناهم أن يدخلوا عسكرهم ، ويكتموا إسلامهم ، ويأتوا بأخبارهم ، فكانوا يعملون ذلك .

قال : فمكثوا أياماً مقابلنا ، ثلاثة أو أربعة ، لا يسألوننا عن شيء ولا نسألهم عن شيء ، ولا يتعرضون لنا ، ولا نتعرض لهم ، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً عالياً وجلبة شديدة وأصواتاً رفيعة ، فظننا أن القوم يريدون النهوض إلينا ، فتهيأنا وتيسرنا ، ثم إنا دسنا عيوناً لنا إليهم ليأتونا بالخبر .

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٣ .

قال : فما لبثنا إلا قليلا حتى رجعوا إلينا فأخبرونا أن يريدوا
جاءهم من قبل ملك الروم ، فبشرهم بمال يقسم بينهم ، ويمدد يأتيهم ،
ففرحوا بذلك ، ورفعوا له أصواتهم .

فقام فيهم ملكهم باهان ، واجتمعوا إليه ، فقال لهم : إن الله لم
يزل لدينكم ناصرا ومعزا ومظهرا على كل من ناوأكم ، وقد جاءكم
قوم يريدون أن يفسدوا عليكم دينكم ويغلبوا على بلادكم ودياركم
وأموالكم ، وأنتم عدد الحصا والثرى والذرّ ، والله إن في هذا
الوادي منكم لنحواً من أربعمئة ألف مقاتل مع أتباعكم وأعوانكم ،
ومن اجتمع إليكم من سكان بلادكم ، ومن هو معكم على دينكم ،
فلا يهولنكم أمرها ، ولا القوم فإن عددهم قليل ، وهم أهل الشقاء
والبؤس ، وجلّهم حاسر جائع ، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك وأهل
الحصون والقلاع ، والعدة والقوة ، والسلاح والكرّاع ، فلا تبرحوا
العرصة وفيهم عين تطرف حتى تهلكوهم أو تهلكوا أنتم .

فقام إليه بطارقتهم ، فقالوا : مرنا بأمرك ، ثم انظر مانصنع .

قال : تيسروا حتى آمركم (١) .

مناوشة بين بعض الجيشين :

قال أبو بشير التنوخي في سياق خبره السابق (٢) : وقد نزلنا
بالمسلمين ونحن لهم هائبون ، وقد كان بلغنا ، أن نبيهم ﷺ قال

(١) فتوح الشام / ١٧٤ .

(٢) أبو بشير التنوخي كان نصرانياً وجاء مع الروم ثم أسلم كما سبق في أول خبره الذي
تقدم في ص ٢٢ .

لهم: إنكم ستظهرون على الروم، وقد كانوا واقعونا غير مرة، كل ذلك يكون لهم الظفر علينا إلا أنا إذا نظرنا إلى عددنا وجموعنا طابت أنفسنا أن مثل جمعنا ذلك لأفضل .

قال: فأقام باهان أياماً يرأسل من حوله من الروم، ويأمرهم أن يحملوا إلى أصحابه الأسواق، وكانوا يفعلون، ولم يكن ذلك يضر المسلمين ، لأن الأردن في أيديهم، فهم مخصبون بخير .

فلما رأى باهان ، صاحب الروم ، أن ذلك لا يضرهم ولا ينقصهم، وأنهم يكتفون بالأردن بعث خيلاً عظيمة ليأتيهم من ورائهم عليها بطريق عظيم من عظمائهم وبطارقتهم، وأراد أن يكفيهم بجنوده من كل جانب، وعلم المسلمون ما يريدون .

فدعا أبو عبدة خالد بن الوليد ، فبعثه في ألفي فارس، فخرج خالد حتى اعترض العلج، فلما استقبله نزل خالد في الرجالة، وبعث قيس بن هبيرة في الخيل، فحمل عليهم قيس، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وحمل قيس في خيل المسلمين على خيلهم، فهزمها حتى اضطرها إلى الرجالة الذين مع خالد ، ومشى خالد في الرجالة حتى إذا دنا من البطريق شدّ عليه رايته ، وشد معه المسلمون ، فضربوهم بالسيوف حتى تبددوا وانهزموا ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

وقال قيس لرجل من بني نعيم مرّ به البطريق يركض منهزماً : يا أخا بني نعيم ، لا يفوتنك البطريق، فإنني والله قد كددت فرسي على هذا العدو من هذا اليوم حتى ماعد فرسي من جري .

فحمل عليه النيميري ، فركض في إثره ساعة ، ثم إنه أدركه،

فلما رأى البطريق أنه قد غشيه وأحرجه عطف عليه البطريق ، فاضطربا بسيفيهما ، فلم يصنع السيفان شيئا ، واعتنق كل واحد منهما صاحبه ، ووقعا على الأرض ، فاعتركا ساعة ، ثم صرعه النميري ، ووقع النميري على صدر البطريق ، فضمه البطريق إليه ، وكان مثل الأسد ، فجعل النميري لا يستطيع أن يتحرك .

وبصر بهما قيس ، فجاء حتى وقف عليهما فقال : يا أخا بني نمير ، قتلتَ الرجل إن شاء الله ؟

قال : لا ، والله ما أستطيع أن أتحرك ، ولا أضربه بشيء ، ولقد ضمني بفخذه وأمسك يدي بيديه .

فنزل إليه قيس فضربه فقطع إحدى يديه ، ثم تركه وانطلق وقال للنميري : شأنك به ، وقام النميري ، فضربه بسيفه حتى قتله .

ومرّ به خالد بن الوليد ، فقال له : ما هذا يا قيس ، ومن قتله ؟ فقال له قيس : قتله هذا النميري ، ولم يخبره ما صنع هو به (١) .

تنظيم جيش المسلمين :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر الحارث ابن عبد الله الأزدي ، ثم النمري .

قال : لما نزل أبو عبيدة بن الجراح اليرموك وضم إليه قواصيه ، وجاءتنا جموع الروم وهم يجرون الشوك والشجر ، ومعهم صلبهم ومعهم القسيسون والرهبان والأساقفة والبطارقة ، ورهبانهم يقصّون عليهم ، وبطارقتهم يحرضونهم فجاءوا حتى نزلوا دير الجبل ، فلما

(١) فتوح الشام / ١٧٨ - ١٧٩ .

أقبلوا إلى المسلمين بتلك الجموع خافهم المسلمون فما كان شيء أحب إليهم من أن يخرجوا لهم ، ويتنحوا عن بلادهم حتى يأتيهم مدد يرون أنهم يقوون به على من جاءهم من الروم .

قال : فدعا أبو عبيدة الناس ، فاستشارهم ، فكل من استشار من الناس أشار عليه بالخروج من الشام إلا خالد بن الوليد ، فإنه أشار عليه بالمقام ، وقال لأبي عبيدة : خلني والناس ودعني والأمر ، وولني ما وراء بابك فأنا أكفك بإذن الله أمر هذا العدو .

فقال له أبو عبيدة : شأنك بالناس ، فخلاه وإياهم .

قال : وكان قيس بن هبيرة المرادي على مثل رأي خالد بن الوليد في المقام بأرض الشام ، ولم يكن في المسلمين أحد يعدلهما في الحرب وشدة البأس .

قال : فخرج خالد بالناس وهم بأحسن شيء رعة ، ودعة وهيئة ، وأشدهم في لقاء عدوهم بصيرة ، وأطيبهم أنفسا بقتالهم .

قال : فصفهم خالد ثلاثة صفوف ، وجعل ميمنة وميسرة ، ثم إن خالدًا أتى أبا عبيدة فقال : من كنت تجعل على ميمتك؟ قال : معاذ ابن جبل .

قال : أهل ذلك هو الرضا والثقة . فولها إياه ، فأمر أبو عبيدة معاذًا ، فوقف في الميمنة .

ثم قال خالد : من كنت تولي الميسرة ؟ قال : غير واحد .

قال : فولها قباث بن أشيم إن رأيت ، فأمره أبو عبيدة ، فوقف

في الميسرة ، وكان فيها كنانة وقيس ، وكان قباث كنانيا ، وكان شجاعاً بيّسا (١) .

وقال خالد : وأنا على الخيل ، وولّ على الرّجالة من شئت .
قال : أوليها إن شاء الله من لا يُخاف نكوله ولا صدوره عند البأس ، أوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، قال : وفّقت ورشدت .
قال أبو عبيدة : إنزل يا هاشم فأنت على الرّجالة وأنا معك .
وقال خالد لأبي عبيدة : ابعث إلى أهل كل راية فمرهم أن يطيعوني .

فدعا أبو عبيدة الضحاك بن قيس فأمره بذلك ، فخرج الضحاك يسير في الناس ، ويقول لهم : إن أميركم أبا عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به .

فقال الناس : سمعنا وأطعنا ، ومر الضحاك بمعاذ بن جبل ، فأمره بطاعة خالد بن الوليد ، فقال معاذ : سمعنا وأطعنا ، ثم نظر إلى الناس فقال : أما والله إن أطعتموه لتطيعنّ مبارك الأمر ، ميمون النقيية ، عظيم الغناء ، حسن الحسبة والنية .

قال الضحاك : فحدثت خالدا بمقالة معاذ بن جبل ، وقلت له : لقد سمعت معاذاً يحسن عليك الثناء ، وقال فيك كيت وكيت .

فقال لي : رحم الله أخي معاذاً ، أما والله إن أحبني إني لأحبه في الله ، لقد سبقْتُ له ولأصحابه سوابق لاندركها ولا تبلغها

(١) يعني أنه شديد البأس .

ولاننا لها ، فهنئاً لهم بما خصهم الله به من ذلك .

قال الضحاك : فلقيت معاذاً فأخبرته بما قلت لخالد وماردّ به عليّ خالد .

فقال معاذ : أما إنني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه على جهاد المشركين ، وشدته عليهم ، وجهاده إياهم مع بصيرته وحسن نيته ، وإعزاز دينه أحسن الثواب ، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملاً .
فلقيت خالداً بذلك ، فقال : ماشيء على الله بعزير .

قال : ثم إن خالداً سار في الصفوف يقف على أهل كل راية ويقول : يا أهل الإسلام ، إن الصبر عز وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر تنصرون فإن الصابرين هم الأعلون ، وإنه إلى الفشل ما يحور المبطل الضعيف ، وأن المحق لا يفشل ، يعلم أن الله معه ، وأنه عن حرم الله يذّبّ وعنه يقاتل ، وأنه إن قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه ، إنه شاكر يحب الشاكرين .

قال : فما زال يقف على كل راية يعظهم ويحضهم ويرغبهم حتى مر بجماعة الناس ، ثم إنه جمع إليه خيل المسلمين ، ودعا قيس بن هبيرة بن مكشوح المراديّ وكان يساعده ويوافقه ويشبهه في جلدته وشدته ، وشجاعته وإقدامه على المشركين ، فقال له خالد : أنت فارس العرب ، وقلّ من حضرها اليوم يعدّلك عندي ، فاخرج معي في هذه الخيل .

وبعث إلى ميسرة بن مسروق العبسي ، وكان من أشرف العرب وفرسانهم ودعا عمرو بن الطفيل بن عمرو ذي النور الأزدي ثم الدؤسي فخرج معه .

ثم قسموا الخيل أرباعاً ، فبعث كل رجل منهم على ربع ، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين حتى دنا من عسكر الروم الأعظم الذي فيه باهان .

فلما رأتهم الروم فزعوا لمحيثهم إليهم ، وقد كانوا أتوا ، فأخبروا أن العرب يريدون الانصراف عن أرض الشام ، وأن يخلوكم وإياها ، فكان ذلك قد وقع على أنفسهم ، وطمعوا به ، ورجوا ألا يكون بينهم قتال ، وصدق ذلك عندهم خروجهم من بين أيديهم يسوقونهم وهم يدعون لهم الأرض والمدائن التي كانوا قد غلبوا عليها فيما بينهم وبين اليرموك ودمشق وحمص وماحولها .

فلما رأوا خالدا قد أقبل عليهم في الخيل أفزعهم ذلك ، وخرجوا على راياتهم ، وخرجوا بصلبهم والقسيسين والرهبان والبطارقة ، فصفوا عشرين صفاً ، لأيرى طرفاها (١) .

هذا وقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري فيما يرويه عن سيف بن عمر عن شيوخه أن الروم خرجوا في تعبئة لم ير الراؤون مثلها قط ، وخرج خالد في تعبئة لم تُعبَّها العرب قبل ذلك ، فخرج في ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين .

وجاء في هذه الرواية أن خالداً قال: إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأي العين من الكراديس (٢) .

وهكذا حاول خالد أن يخفف من الفرق الهائل بين الجيشين في

(١) فتوح الشام / ١٨٧ - ١٩١ .

(٢) الكردوس الكتبية وهي جزء من الجيش .

نظر العين، ويُعتبر هذا التنظيم من عبقرياته في التخطيط الحربي .

مبارزة ومناوشات :

ثم أخرجوا إلى المسلمين خيلا عظيمة أضعاف خيل المسلمين ، فلما دنت من خيل المسلمين خرج بطريق من بطارقتهم وشجعانهم يسأل المبارزة ويتعرض لخيل المسلمين .

فقال خالد : أما لهذا رجل يخرج إليه ؟ ليخرجن إليه بعضكم أو لأخرجن إليه ، فتلفت إليه عدة من المسلمين ليخرجوا إليه ، فأراد ميسرة بن مسروق أن يخرج إليه فقال له خالد : أنت شيخ كبير ، وهذا الرومي شاب ، ولا أحب أن تخرج إليه ، فإنه لا يكاد الشيخ الكبير يقوى على الشاب الحديث السنّ ، فقف لنا رحمك الله ، في كتيبتك ، فإنك ما علمت حسن البلاء عظيم الغناء .

وأراد عمرو بن الطفيل أن يخرج إليه ، فقال له خالد : يا ابن أخي ، أنت غلام حديث السن ، وأخاف ألا تقوى عليه .

قال الحارث بن عبد الله الأزدي : وكنت في خيل خالد التي خرجت معه ، فقلت ، فأنا أخرج إليه ، فقال : ماشئت ، فلما ذهبت لأخرج إليه قال لي خالد : هل بارزت رجلا قط قبله ؟ قلت : لا ، قال : فلا تخرج إليه .

قال قيس بن هبيرة . يا خالد ، كأنك عليّ تُحوّط ؟

قال له : أجل ، فإنني أرجو إن خرجت إليه أن تقتله ، فإن أنت لم تخرج إليه لأخرجن إليه أنا .

فقال قيس : بل أنا أخرج إليه ، فخرج إليه قيس وهو يقول :
سَائِلُ نِسَاءِ الْحَيِّ فِي حِجَالِهَا^(١) أَلَسْتُ يَوْمَ الْحَرْبِ مِنْ أَبْطَالِهَا
مُقَعَّصِ الْأَقْرَانِ مِنْ رِجَالِهَا

فخرج إليه ، فلما دنا منه ضرب فرسه ، ثم حمل عليه قيس ، فما
لهل^(٢) أن ضربه بالسيف على هامته ، فقطع ماعليه من السلاح ،
وفلق هامته فإذا الرومي بين يدي فرسه قتيلا ، وكبر المسلمون .

فقال خالد : مابعد ماترون إلا الفتح ، احمل عليهم يا قيس .
ثم أقبل خالد على أصحابه ، فقال : احملوا عليهم ، فوالله لا
يفلحون ، وأولهم فارس متعفر في التراب .

قال : فحملنا عليهم وعلى من يلينا منهم ، ومن خيلهم وهي
مستقدمة أمام صفوفهم كأنها أعراض الجبال .

قال قيس : فحملنا عليهم ، فكشفنا خيلهم حتى لحقت
بالصفوف ، وحمل عليهم خالد وأصحابه على من يليهم ، فكشفوهم
حتى ألحقوهم بالصفوف .

وحمل عمرو بن الطفيل الأزدي وميسرة بن مسروق العبسي في
أصحابهما حتى ألحقوهم بالصفوف ، صفوف المشركين .

ثم إن خالدًا أمر خيله ، فأنصرفت عنهم ، ثم أقبل بها حتى لحق
بجماعة المسلمين ، وقد أراهم الله السرور في المشركين ، وتلاومت

(١) الحجال القباب والستور .

(٢) أي انتظر .

بطارقة الروم ، وقال بعضهم لبعض : جاءكم خيل لعدوكم ليست بالكثيرة ، فكشفت خيولكم من كل جانب .

فأقبلت منهم كتائب في إثر كتائب ، فطبّقوا الأرض مثل الليل والليل ، كأنها الجراد السود ، وظن المسلمون أنهم سيخالطونهم ، والمسلمون جُرءاء عليهم ، سراع إليهم ، فأقبلوا حتى إذا دنوا من جماعة المسلمين واقتربوا منهم ومن خيلهم وقفوا ساعة وقد هابوهم ، وامتلات صدورهم من المسلمين خوفاً .

فقال خالد للمسلمين : قد رجعنا عنهم ، ولنا الظفر عليهم وعليهم الدبّرة ، فاثبتوا لهم ساعة ، فإن أقدموا علينا قاتلناهم ، وإن رجعوا عنا كان لنا الظفر والفضل عليهم .

فأخذوا يقربون من المسلمين ثم يرجعون ، والمسلمون في مصافّهم وتحت راياتهم سكوت ، لا يتكلم رجل منهم كلمة إلا أن يدعو الله في نفسه ، ويستنصره على عدوه (١) .

عدول الروم إلى المفاوضات :

فلما نظرت الروم إلى حالهم تلك ، وإلى خيل المسلمين ورجّالتهم ومصافّهم ، وحَدّهم وجدّهم ، وصبرهم وسكوتهم ألقى الله الرعب في قلوبهم ، فواقفوه ساعة ، ثم انصرفوا راجعين عنهم إلى عسكرهم .

قال : فاجتمعت بطارقتهم وأمراؤهم وعظماؤهم وفرسانهم إلى باهان ، وهو أمير جماعتهم ، فقال لهم باهان :

(١) فتوح الشام / ١٩١ - ١٩٤ .

إنني قد رأيت رأياً، وأنا ذاكره لكم ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بلادكم ، وركبوا مراكبكم، وطعموا من طعامكم ولبسوا من لباسكم، فعَدُلُ الموت عندهم أن يفارقوا ما قد تطعموه من عيشكم الرفيع، ودنياكم التي لم يروا مثلها قط، وقد رأيت إن رأيتم ذلك أن أسألهم أن يبعثوا إلينا رجلاً منهم له عقل، فنناطقه ونشافه، ونطمعهم في شيء يرجعون به إلى أهلهم، لعل ذلك يُسخي بأنفسهم عن بلادنا، فإن هم فعلوا ذلك كان الذي يريدون منا قليلاً فيما نخاف، وندفع به خطر الواقعة التي لاتدرون تكون علينا أم لنا .

فقالوا له : قد أصبت ، وأحسنست النظر لجماعتنا ، فاعمل برأيك .

وإن في هذا الكلام الذي صدر من أكبر وأعقل قوادهم لدليلاً على أنهم لم يفهموا هدف المسلمين الأسمى من غزو بلادهم، فهم ينسبون ذلك إلى طمع المسلمين فيما في بلادهم من الخيرات ومايعيش به المسلمون في بلادهم من شطف العيش وقلة الموارد، ولذلك فإنهم لايزالون يطمعون في قبول المسلمين لما يعرضونه عليهم من الصلح على أموال يدفعونها لهم .

وقد سبق أن عرضوا ذلك على المسلمين بإلحاح في معركة فحل وكان السفير إليهم معاذ بن جبل ورد عليهم بكلام لامحيد عنه، ثم أجابهم أبو عبيدة بجواب معاذ نفسه ، ولكنهم في هذه المرة قد اغتروا بجموعهم العظيمة ، وبكون المسلمين تراجعوا إلى جنوب الشام، فحاولوا إعادة عروضهم السابقة .

وهكذا نجد الكفار في كل زمن لا يفقه كثير منهم هدف المسلمين الواحد الذي لا يتغير منذ بعث الله تعالى نبيه ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولذلك نجدهم يتورطون كثيراً في حروبهم مع المسلمين الصادقين ولكنهم ينسون هذا الهدف السامي أحياناً لكثرة من يواجهون من المسلمين غير الصادقين على مدار التاريخ الذين يقعون فريسة لفتنة الترغيب أو التهريب من قبل الأعداء .

ولقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثال في صلابة الموقف أمام جميع الأعداء ، والامتناع التام من الخضوع لمطالبهم والاستجابة لتهديداتهم أو إغرائهم ، وكان جوابهم في كل موقف تعرضوا له جواباً واحداً لا يتغير ، مما يدل على عمق التربية الدينية التي رباهم عليها الرسول ﷺ .

هذا ولما عرض باهان على قادة جيشه هذا الرأي « قالوا: قد أصبت وأحسنست النظر لجماعتنا فاعمل برأيك ، فبعث رجلاً من خيارهم وعظمائهم اسمه « جرجه » حتى أتى أبا عبيدة فقال له : إني رسول "باهان" عامل ملك الروم على الشام وعلى هذه الجنود وهو يقول لك : أرسل إليّ الرجل منكم الذي كان قبلك أميراً فإنه قد ذكر لي أن ذلك الرجل له عقل وله فيكم حسب ، وقد سمعنا أن عقول ذوي الأحساب أفضل من عقول غيرهم ، فنخبره بما نريد ، ونسأله عما تريدون ، فإن وقع فيما بيننا وبينكم أمر لنا ولكم فيه صلاح أو رضى أخذنا به وحمدنا الله عليه ، وإن لم يتفق ذلك فيما بيننا وبينكم كان القتال من وراء ما هناك » .

وهكذا نص قائدهم على أمير المسلمين السابق خالد بن الوليد، ولعله نص عليه لكونه أصلب المسلمين موقفًا في قتال الروم ، فلو استطاع إقناعه بالصلح والانسحاب لرجا بذلك أن يحوز على قناعة المسلمين، وهو ينطلق في ذلك أيضًا من المفاهيم البشرية التي تسود عموم البشر في كل الأزمان إذا تخلَّوا عن شريعة الله، من أن الرجل القوي القيادي في الجيش يغيّر من آراء أفراد الجيش غالبًا، ولا يعلم هؤلاء أنه مهما بلغ القائد عند المسلمين من القوة ونباهة الذكر فإن تأثيره على الجيش لا يعدو الأمور الاجتهادية التي ليس فيها نص ملزم من شريعة الإسلام .

وهكذا فكر باهان في عرض الصلح على المسلمين مع أن معه جيشًا يبلغ عشرة أضعافهم ، وهذا دليل واضح على أن الروم قد أصيبوا بالرعب من المسلمين بالرغم من تفوقهم الكبير في الجيش والإعداد العسكري .

إن المنتظر في مثل هذه الحال أن يكون لدى الروم إقدام شديد وحماس قوي نحو الحرب حتى يقضوا على عدوهم الذي أرعبهم وأزال دولتهم من الشام ، مادامت الفرصة قد واتتهم وجمعوا ذلك الجمع الكبير الذي يصعب جمعه مرة أخرى .

ومن المنتظر عادة أن الذي يطلب الصلح هو الضعيف القليل العدد الذي يخشى على نفسه من الإبادة ووسط جيش عظيم .

ولكن الذي حدث خلاف ذلك تمامًا، لقد كان المسلمون في منتهى الإقدام والحماس، وكان الروم في منتهى الرعب والخوف،

وماذاك إلا من أثر سلاح الرعب الذي ينصر الله تعالى به أوليائه المؤمنين .

قال : وجاء رسولهم هذا الرومي عند غروب الشمس ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى حضرت الصلاة ، فقام المسلمون يصلون صلاتهم ، فلما قضوا صلاتهم قال خالد للرومي :

- هذا الليل قد غشنا ، ولكن إذا أصبحت غدوت إلى صاحبك ، إن شاء الله ، فارجع إليه ، فأعلمه ذلك .

وجعل المسلمون ينتظرون الرومي أن يقوم إلى صاحبه ، فيرجع إليه ، فيخبره بما ردّوا عليه ، وأخذ الرومي لا يبرح ، وجعل ينظر إلى رجال من المسلمين يصلون ، وهم يدعون الله ، ويتضرعون إليه . فقال عمرو بن العاص : إن رسولكم هذا الذي أرسل إليكم لمجنون .

فقال أبو عبيدة : كلا ، أو ماتفطن إلى نظره إلى المسلمين ؟ وجعل الرومي ما يفيق ولا يطرف بصره عنهم . فقال أبو عبيدة : والله إنني لأرجو أن يكون الله قد قذف في قلبه الإيمان وحبّه إليه ، وعرفه فضله .

فلبث الرومي بذلك قليلاً ، ثم أقبل على أبي عبيدة ، فقال : أيها الرجل ، متى دخلتم في هذا الدين ؟ ومتى دعوتم إليه الناس ؟ قال أبو عبيدة : دُعينا إليه منذ بضع وعشرين سنة ، فمننا من أسلم حين أتاه الرسول ، ومننا من أسلم بعد ذلك .

فقال: هل كان رسولكم أخبركم أنه يأتي من بعده رسول ؟
فقال: لا ، ولكنه أخبرنا أنه لاني بعده ، وأخبرنا أن عيسى بن
مريم قد بشر به قومه .

قال الرومي : أنا على ذلك من الشاهدين . أن عيسى بن مريم قد
بشرنا براكب الجمل ، وما أظنه إلا صاحبكم .

وقال الرومي : أخبروني عن قول صاحبكم في عيسى بن مريم
ماكان ، وما قولكم أنتم فيه ؟

قال أبو عبيدة : قول صاحبنا قول الله ، وهو أصدق القول وأبره
قال الله في عيسى بن مريم : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ
خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) وقال الله ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ إلى آخر الآية ،
وإلى قوله ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢) .

فلما فسر له الترجمان هذا بالرومية ، وبلغ هذا المكان قال : أشهد
أن هذه صفة عيسى نفسه ، وأشهد أن نبيكم صادق ، وأنه الذي بشرنا
به عيسى ، وأنكم قوم صدق .

(١) سورة آل عمران الآية ٥٨ - ٥٩ .

(٢) سورة النساء ، الآيتان ١٧٠ - ١٧١ ، وتكملة الآية الأولى ﴿ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا
تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

وقال لأبي عبيدة : ادع لي رجلين من أول أصحابك إسلاما ،
وهما فيما ترى أفضل من معك .

فدعا أبو عبيدة معاذ بن جبل وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل ،
فقال : هذان من أفضل المسلمين فضلا ، ومن أول المسلمين إسلاما .

فقال لهما الرومي ولأبي عبيدة : أتضمنون لي الجنة إن أنا أسلمت
وجاهدت معكم ؟

فقالوا له : نعم ، إن أنت أسلمت ولم تغير حتى تموت وأنت
على ذلك فإنك من أهل الجنة .

قال : فإني أشهدكم أنني من المسلمين .

فأسلم ، وفرح المسلمون بإسلامه ، وصافحوه ودعوا له بخير ،
وقالوا له : إنا إن أرسلنا رسولنا غدا إلى صاحبكم وأنت عندنا ظنوا
أنا حبسناك عنهم ، فنتخوف أن يجسوا صاحبنا ، فإن شئت أن تأتيهم
الليلة ، وتكتم إسلامك حتى نبعث رسولنا إليهم غدا ،
وينصرف . وننظر على ما ينصرم الأمر فيما بيننا وبينهم ، فإذا رجع
رسولنا إلينا أتيتنا عند ذلك ، فما أعزك علينا ، وأرغبنا فيك ، وأكرمك
علينا ، وما أنت عند كل امرئ منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه .

قال : فإنكم نعمَ ما رأيتم ، فخرج ، فبات في أصحابه ، وأتى
بাহان فقال له : غدا يجيئك رسول القوم الذي سألتهم .

فلما أصبح الرومي ، وانصرف خالد راجعا إلى أصحابه من قبل
بাহان أقبل الرومي حتى لحق بالمسلمين ، فأسلم وحسن إسلامه ،
وكان له نجدة ونكاية في المشركين رحمه الله .

قال : فدعا أبو عبيدة خالداً فأخبره الذي جاء فيه جرحه وقال
لخالد : القهم فادعهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا فهو حظهم ، وكانوا
قوماً لهم مالنا وعليهم ماعلنا ، وإن أبوا فاعرض عليهم الجزية بأن
يؤدوها عن يد وهم صاغرون . فإن أبوا فأعلمهم أننا نناجزهم
ونستعين الله عليهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين .

هكذا بهذا الحكم الثابت أوصى أبو عبيدة خالداً ، ولو علم الروم
باعتصام المسلمين بهذا الحكم لأراحوا أنفسهم من عناء التفكير في
محاولة إقناع المسلمين بقبول رأيهم في الصلح .

حوار خالد مع الروم :

هذا ولما عزم خالد على المسير لمقابلة قائد الروم أمر بخيمة له من
الجلد فضُرِبَتْ له في معسكر الروم ، وخرج خالد فأقام بها بعض
الوقت ، ثم بعث باهان إلى خالد يدعوه إلى لقائه ، وقد صف في
طريقه عشرة صفوف عن يمينه ومثلها عن شماله مقنَّعين بالحديد لا يرى
منهم إلا عيونهم ، محمَّلين بأنواع الأسلحة ، وصفاً من وراء تلك
الصفوف خيلاً عظيمة لا يرى طرفها ، وإنما أراد باهان بذلك أن يُريَ
خالداً حدة الروم وعددهم ليرعبه بذلك ، وليكون ذلك أسرع إلى
ما يريد أن يعرض عليه من الصلح والمهادنة ، فأقبل خالد غير مكتثر
بما رأى من هيئتهم وجماعتهم ، وكأنها أهون عليه من الكلاب .

وهكذا بدأ باهان مع خالد بفتنة الإرهاب والتخويف ، ولكن
خالداً لم يتأثر بشيء مما رأى من كثرتهم وتنوع أسلحتهم ، لأنه يعتبر
القوة المادية في المقام الثاني ، ويعتبر القوة المعنوية في المقام الأول ،

وهو يعلم يقيناً أن الكفار جميعاً لا يصلون إلى مستوى المسلمين في هذا المجال حتى ولو كانوا عشرة أضعاف المسلمين .

فلما دنا من باهان رحب به ، ثم قال بلسانه : هاهنا عندي اجلس معي فإنك من ذوي أحساب العرب فيما ذكر لي ، ومن شجعانهم ، ونحن نحب الشجاع ذا الحسب ، وقد ذُكر لي أن لك عقلاً ووفاء ، والعقل ينفعك كلامه وذو الوفاء يصدق قوله ويوثق بعهده .
وأجلس فيما بينه وبين خالد ترجماناً ، فهو يفسر لخالد مايقول ، وخالد جالس إلى جانبه .

ثم قال باهان لخالد : أخبرني عنك وأنت هكذا ، أحتاج إلى مشورة هذا الرجل معك ؟

فقال له خالد : وقد تعجب من ذلك ، إن في عسكرنا هذا لأكثر من ألفي رجل ، كلهم لا يُستغنى عن رأيه وعن مشورته .
فقال له باهان : ما كنا نظن ذلك عندكم ولانراكم به .
قال خالد - مائل مائتظنون ونظن يكون صواباً . قال باهان : صدقت .

ثم قال باهان : إن أول ما أكلمك به أن أدعوك إلى خلّتي ومصافاتي . .

وهذا من الأمور الغريبة أن يدعو قائد الروم قائد المسلمين إلى الخلّة والمصافاة وقد تقابلا في الميدان ، والروم في اعتقادهم أن المسلمين معتدون عليهم ، فالوضع الطبيعي أن تحصل إرادة النقمة والإعدام بدلاً من إرادة الخلّة والمصافاة ، ولكن إذا علمنا أن ذلك نوع من النفاق

السياسي الذي يتعامل به الأعداء مع المسلمين وغيرهم ويعتبرونه من الحنكة السياسية والبراعة في احتواء الخصوم . . إذا علمنا ذلك فإن الغرابة تزول لأن هذا خلق من أخلاق الكفار التي لا يرون فيها جرحاً لمكارم الأخلاق، أما المسلمون فإنهم بمقتضى توجيهات دينهم يعتبرون ذلك من مساوئ الأخلاق التي لا يتصف بها إلا المنافقون، ولذلك أجاب خالد قائد الروم بقوله : فكيف لي ولك أن يتم هذا فيما بيني وبينك وقد جمعتني وإياك بلدة لأريد أنا ولا تريد أنت أن نفرق حتى تصير البلدة لأحدنا ؟

فقال باهان : فلعل الله يصلح بيننا وبينكم ولا يراق دم ولا يقتل قتيل .

فقال خالد : إن شاء الله فعل .

انتقل باهان بعد ذلك إلى لون آخر من محاولة احتواء خالد حيث قال له : فإنني أريد أن ألقى الحشمة فيما بيني وبينك وأكلمك كلام الأخ لأخيه وإن قبلك هذه الحمراء قد أعجبتني ، وأنا أحب أن تهبها لي ، فإنني لم أرَ قبة من القباب أحسن منها وأفضل ، فخذ ما بدا لك فيها وسلني ما أحببت فهو في يديك وهب لي هذه القبة فهي أطرف مما عندنا .

وهكذا رأينا باهان يساوم خالدًا في خيمته الجلدية ويبيدي استعداداه لدفع ما يريد خالد من أموال ، وهو الذي يملك أفخر القباب ، وأنعم الأثاث ، فهل كان فعلاً يريد شراء هذه الخيمة أم كان يريد شراء خالد بالإغراء المادي ؟!

إن هذا الأخير هو المتبادر إلى الذهن في معاملة تدور بين قائدين من أعظم قادة العالم آنذاك .

فماذا كان جواب خالد له ؟ لقد قال له : هي لك فخذها ولست أريد من متاعك شيئاً .

لقد فوّت خالد عليه مراده من هذه المساومة ، وعلم باهان أنه لا جدوى من محاولاته التي يقوم بها لاحتواء خالد، فتحول إلى عرض المفاوضة التي يريدها فقال لخالد : إن شئت بدأنك بالكلام وإن شئت أنت فتكلم .

فقال خالد : ما أبالي أي ذلك كان، أما أنا فلا إخالك إلا وقد علمت وبلغك ما أسأل وما أطلب وما أدعو إليه ، وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منكم بأجنادين ومرج الصُّفْر وفحل ومدائنكم وحصونكم ، وأما أنت فلست أدري ماتريد أن تقول ، فإن شئت فتكلم ، وإن شئت بدأتك فتكلمت .

وهكذا أشعره خالد بأنه لاجديد لديه ، وإنما مطلبه الآن هو نفس العرض السابق الذي يقدمه المسلمون في كل لقاء بينهم وبين أعدائهم ، فهو مطلب واحد لاتنازل فيه ولا تحول عنه .

فقال باهان: الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء ، وملكنا أفضل الملوك ، وأمتنا خير الأمم .

فلما بلغ هذا المكان قال خالد للترجمان ، وقطع على صاحب الروم منطقته ، ثم قال : والحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبينا وجميع الأنبياء ، وجعل الأمير الذي ولّيناه أمورنا رجلا كبعضنا ، فلو

زعم أنه ملك علينا لعزلناه عنا ، ولسنا نرى أن له على رجل من المسلمين فضلا ، إلا أن يكون أتقى منه عند الله وأبر ، والحمد لله الذي جعل أمتنا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتقر بالذنب وتستغفر الله منه ، وتعبد الله وحده ، لا تشرك به شيئا ، قل الآن مابدا لك .

فاصفرّ وجه باهان ، ومكث قليلا ، ثم قال باهان : الحمد لله الذي أبلانا فأحسن البلاء عندنا ، وأغنانا من الفقر ، ونصرنا على الأمم وأعزنا فلا نذلّ ، ومنعنا من الضيم ، فلا يباح حريمنا ، ولسنا فيما أعزنا الله به وأعطانا من ديننا يبّطرين ولامرحين ولاباغين على الناس ، وقد كانت لنا منكم يامعشر العرب جيران كنا نحسن جوارهم ، ونعظم قدرهم ، ونفضّل عليهم ، ونفي لهم بالعهد ، وخيرناهم بلادنا ، ينزلون منها حيث شاءوا ، فينزلون آمنين ، ويرحلون آمنين ، وكنا نرى أن جميع العرب ممن لايجاورنا سيشكر لنا ذلك الذي آتينا إلى إخوانهم ، وما اصطنعنا عندهم ، فلم يرعنا منكم إلا وقد فاجأتمونا بالخييل والرجال ، تقاتلوننا على حصوننا ، وتريدون أن تغلبونا على بلادنا ، وقد طلب هذا منا قبلكم من كان أكثر منكم عدداً ، وأعظم مكيدة ، وأوفى جنداً ، ثم رددناهم عنها ، فلم يرجعوا عنا إلا وهم بين قتيل وأسير .

وأراد منا ذلك فارس ، فقد بلغكم كيف صنع الله عز وجل ، بهم ، وأراد ذلك منا الترك فلقيناهم بأشد مما لقينا به فارس ، وأرادنا غيركم من أهل المشرق والمغرب من ذوي المنعة والعز والجنود العظيمة ،

فكلهم أظفرنا الله بهم، وصنع لنا عليهم، ولم تكن أمة من الأمم بأرقَّ عندنا منكم شأنًا، ولا أصغر أخطارًا، إنما جُلِّكم رعاء الشاء والإبل، وأهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء، فأنتم تطمعون أن نُجَلِّيَ لكم عن بلادنا، بئس ما طمعتم فيه منها، وقد ظننا أنه لم يأت بكم إلى بلادنا - ونحن يتَّقي كلُّ من حولنا من الأمم العظيمة الشأن الكثيرة العدد كثرتنا وشدة شوكتنا - إلا جهد نزل بكم من جدوبة الأرض وقحط المطر، فعثيثم في بلادنا، وأفسدتم كل الفساد، وقد ركبتم مراكبنا، وليست كمراكبكم، ولبستم ثيابنا، وليست كثيابكم، وثياب الروم كأنها صفائح الفضة، وطعمتم من طعامنا وليس كطعامكم، وأصبتُم منا، ومَلَأْتُم أيديكم من الذهب الأحمر والفضة البيضاء، والمتاع الفاخر، ولقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا، وهو في أيديكم، فنحن نسلمه لكم، واخرجوا به، وانصرفوا عن بلادنا.

فإن أبت أنفسكم إلا أن تحرصوا وتشرِّهوا، وأردتم أن نزيدكم من بيوت أموالنا ما يقوَّى به الضعيف منكم، ويرى الغائب أن قد رجع إلى أهله بخير، فعلنا، ونأمر للأمير منكم بعشرة آلاف دينار، ونأمر لك بمثلها، ونأمر لرؤسائكم بألف دينار، ونأمر لجميع أصحابك بمائة دينار على أن توثقوا لنا بالأيمان المغلظة ألا تعودوا إلى بلادنا، ثم سكت.

وهنا وصل باهان إلى تفصيل ما يريد عرضه من أمر الصلح في مقابل أن تدفع دولة الروم للمسلمين مبالغ ضخمة من الدنانير تصل إلى الملايين، بالرغم من أن خالدًا جابهه بما يُقنَّطه ويدفعه إلى اليأس

من احتوائه وموافقته على ما يريد، وبالرغم من القوات الهائلة التي يقودها ، ولكن لعله مأمور بأن ينفذ هذه الخطة فلا بد من عرضها وإن فقدت جدواها .

وبهذا نجد الفرق واضحاً بين تصرف قادة المسلمين وقادة الكفار، فكلهم يسرون وفق مخطط مرسوم، ويطيعون قادتهم الكبار، ولكن قادة المسلمين لا ينفذون الأوامر باعتبارها أوامر بشرية فحسب، بل باعتبارها أوامر إلهية . ومن ضمن هذه الأوامر طاعة المسؤولين الكبار في حدود طاعة الله تعالى ، ثم إنهم يأخذون حريتهم الكاملة في الأمور الاجتهادية التي هي دون الأمور الثابتة ، والتي تتطلبها المواقف المتغيرة ، ولذلك فإن أحكامهم في اتخاذ المواقف لا تتسم بالحيرة والشذوذ بل تنسجم مع متطلب العقل السليم ، بخلاف مواقف قادة الكفار التي يغلب عليها الاضطراب والحيرة ، وينفر من قبولها العقل السليم .

فقال خالد رضي الله عنه : الحمد لله الذي لا إله إلا هو .
فلما فسر له الترجمان قوله : الحمد لله الذي لا إله إلا هو رفع يده إلى السماء ثم قال لخالد : نعم ما قلت .

ثم قال خالد . وأشهد أن محمداً رسول الله ، ﷺ .
فلما فسر له الترجمان قال باهان : الله أعلم، ما أدري لعله كما تقول، فأخبر الترجمان خالداً .

ثم قال خالد رضي الله عنه : أما بعد فإن كل ما ذكرت به قومك من الغنى والعز، ومنع الحريم ، والظهور على الأعداء، والتمكن في

البلاد فنحن به عارفون ، وكل ماذكرت من إنعامكم على جيرانكم منا فقد عرفناه ، وذلك لأمر كنتم تصلحون به دنياكم ، وإصلاحكم وإحسانكم إليهم كان ذلك زيادة في ملككم وعزاً لكم ، ألا ترون أن ثلثهم أو شطرهم دخلوا معكم في دينكم فهم يقاتلوننا معكم ؟

وأما ما ذكرتنا به من رعي الإبل والغنم فما أقل من رأيت واحداً منا يكرهه ، وما لمن يكرهه منا فضل على من يفعله ، وأما قولكم إنا أهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء فحالنا والله كما وصفت ، ما نتقي من ذلك ولا نتبرأ منه ، وكنا على أسوأ وأشد مما ذكرت ، وسأقص عليك قصتنا ، وأعرض عليك أمرنا ، وأدعوك إلى حظك إن قبلت .

ألا إنا كنا ، معشر العرب ، أمة من هذه الأمم أنزلنا الله - له الحمد - منزلاً من الأرض ، ليست به أنهار جارية ، ولا يكون به من الزرع إلا القليل ، وكل أرضنا المهامة والقفار ، فكنا أهل حجر ومدر ، وشاء وبعير ، وعيش شديد ، وبلاء دائم لازم ، نقطع أرحامنا ، ونقتل خشية الإملاق أولادنا ، ويأكل قويننا ضعيفنا ، وكثيرنا قليلنا ، ولاتأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة ، نعبد من دون الله أرباباً وأصناماً ننختها بأيدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا ، وهي لاتضر ولا تنفع ، ونحن عليها مكبون .

فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار ، من مات منا مات مشركاً ، وصار إلى النار ، ومن بقي منا بقي كافراً مشركاً بربّه ، قاطعاً لرحمه إذ بعث الله فينا رسولا من صميمنا وشرفائنا وخيارنا وكرمائنا

وأفضلنا ، دعانا إلى الله وحده أن نعبد له ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع
الأنثاد التي يعبدونها المشركون دونه ، وقال لنا : لاتتخذوا من دون الله
ربكم إلهاً ، ولاوليا ولا نصيراً ، ولا تجعلوا معه صاحبة ولا ولداً ،
ولا تعبدوا من دونه ناراً ولا حجراً ، ولا شمساً ولا قمرًا ، واكتفوا به رباً
والهاً من كل شيء دونه ، وكونوا أولياءه ، وإليه فادعوا وإليه فارغبوا .

وقال لنا : قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى ، وكل من زعم أن
لله ولداً ، وأنه ثاني اثنين ، أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا : لا إله إلا الله ،
وحده لا شريك له ، ويدخلوا في الإسلام ، فإن فعلوا حرمت عليكم
دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها ، وهم إخوانكم في الدين ،
لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، فإن هم أبوا أن يدخلوا في دينكم
فاعرضوا عليهم الجزية ، أن يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، فإن هم
فعلوا فاقبلوا منهم ، وكفوا عنهم ، وإن أبو فقاتلوهم ، فإنه من قتل
منكم كان شهيداً عند الله مرزوقاً وأدخله الله الجنة ، ومن قتل من
عدوكم قتل كافراً وصار إلى النار مخلداً فيها أبداً .

ثم قال خالد : وهذا والله الذي لا إله إلا هو ، أمر الله به
نبيه ﷺ ، فعلمناه وأمرنا أن ندعو الناس إليه ، ونحن ندعوكم إلى
مادعا إليه نبينا ﷺ ، وإلى ما أمرنا به أن ندعو الناس إليه ، فندعوكم
إلى الإسلام ، وإلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده
ورسوله ، وإلى أن تقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، وتقرؤا بما جاء من
عند الله عز وجل فإن فعلتم فأنتم إخواننا في الإسلام ، لكم مالنا .
وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فإننا نعرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يد

وأنتم صاغرون، فإن فعلتم قبلنا منكم، وكفنا عنكم، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قوم، وهم أحرص على الموت منكم على الحياة، فاخرجوا بنا على اسم الله حتى نحاكمكم إلى الله، فإنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين .

وهكذا أنهى خالد بيانه بهذه الخيارات الثلاثة التي دعا إليها باهان وجيشه، وقد تحير باهان أمامها وانزعج كثيراً، لأنه لا يرضى هو ولا قومه بالخيارين الأولين، فلم يبق إلا الخيار الثالث، وهو الذي حاول بكل جهوده السابقة أن يتلافاه لخوفه من مواجهته وشكّه في عاقبته، ولكنه أمر لامحيد عنه، ولذلك قال باهان: « أما أن ندخل في دينكم فما أبعد من ترى من الناس من يترك دينه ويدخل في دينكم، وأما أن نؤدي الجزية - وتنفس صعداً وثقلت عليه وعظمت عنده. فقال - فسيموت من ترى جميعاً قبل أن يؤدوا الجزية إلى أحد من الناس، وهم يأخذون الجزية ولا يعطونها، وأما قولك فاخرجوا حتى يحكم الله بيننا فلعمري ماجاءك هؤلاء القوم وهذه الجموع إلا ليحاكموك الله، وأما قولك إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فصدقت، والله ما كانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها وتقاتلوننا فيها إلا لأمة من الأمم كانوا قبلنا فيها فقاتلناهم عليها فأخرجناهم منها، وقد كانت قبل ذلك لقوم آخرين فأخرجهم منها هؤلاء الذين كنا قاتلناهم فيها، فابرزوا على اسم الله فإننا خارجون إليكم .

هذا وفي كلام باهان ما يدل على تشاؤمه من هذه الحرب وأنه يتوقع أن يرث المسلمون بلاد الشام كما ورثها الروم من أسلافهم . كما تدل هذه المحاوراة على أن هذا القائد كان من أفضل قادة

الروم وأنبلهم ولكن رجاحة العقل لاتجدي شيئاً إذا فُقدت الهداية إلى الصراط المستقيم .

هذا وقد جاء في سياق الرواية المذكورة أن سفيان بن سليم الأزدي قال : قال لي الحارث بن عبد الله الأزدي : فلما فرغ باهان من كلامه وثب خالد فقام ، وقمت معه ، فمرّ بقبته فتركها له ، ومضينا حتى خرجنا من عسكرهم .

قال : ويعث معنا صاحب الروم رجالا أخرجونا من عسكرهم ، وحتى أمنّا .

قال : فرجعنا إلى أبي عبيدة ، فقص عليهم خالد الخبر ، وأخبرهم بأن القتال سيقع بينهم ، وقال للناس : استعدوا أيها الناس استعداد قوم يرون أنهم على ساعة مقاتلون (١) .

مشورة باهان لأصحابه :

روى أبو إسماعيل الأزدي من خبر أبي جهضم الأزدي عن رجل من الروم قال : كنت مع باهان في عسكرهم ذلك قال : وقد كان أسلم وحسن إسلامه قال : كتب باهان إلى قيصر كتابا يخبره فيه بحاله وحال أصحابه وحال المسلمين ، وكان قد جمع أصحابه يوم انصرف خالد عنهم ، فقال : أشيروا عليّ برأيكم في أمر هؤلاء القوم ، فإنني قد هيّيتهم ولاأراهم يهابون ، وأطمعتهم فليسوا يطمعون ، وأردتهم على الرجوع والخروج من بلدنا بكل وجه فليسوا براجعين ، والقوم ليسوا يريدون إلا هلاككم واستئصالكم وسلب سلطانكم ، وأكل بلادكم

(١) فتوح الشام / ١٩٤ - ٢٠٧ . بتصرف .

وسبي أولادكم ونسائكم وأخذ أموالكم ، فإن كنتم أحراراً فقاتلوا عن سلطانكم ، وامنعوا حريمكم ونساءكم وأولادكم وبلادكم وأموالكم .

فقامت البطارقة ، رجل من بعد رجل ، فكلهم يخبره أنه طيب النفس بالموت دون بلاده وسلطانه ، وقالوا له : إذا شئت فانهض بنا .

فقال لهم باهان : فكيف ترون بقتالهم ، فإننا أكثر من عشرة أضعافهم نحن نحو من أربعمئة ألف ، وهم نحو من ثلاثين ألفاً ، أو أقل أو أكثر قليلاً .

فقال له بعضهم : أخرج إليهم في كل يوم مائة ألف يقاتلون وتستريح البقية وتُسرح بعيالنا وأثقالنا إلى البحر فلا يكون معنا شيء يهمننا ولا يشغلنا ، ويقاتلهم في كل يوم منا مائة ألف ، فهم في كل يوم في قتل وجراحات ، وعناء ومشقة وشدة ، ونحن لانقاتل إلا كل أربعة أيام يوماً ، فإن هزموا منا في كل يوم مائة ألف بقي لهم أكثر من مائتي ألف لم ينهزموا .

وقال آخرون : لا ، ولكننا نرى إذا هم خرجوا إلينا أن تبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابك ، فلا والله لاتبعث عشرة على واحد إلا غلبوه .

فقال لهم باهان : هذا ما لا يكون ، وكيف أقدر على عددهم حتى أبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابي ؟ وكيف أقدر على أن ينفرد الرجل منهم من صاحبه حتى أبعث إليه عشرة من قبلي ؟ وهذا ما لا يكون .

قال : فأجمع رأيهم جميعاً على أن يخرجوا بأجمعهم خرجة

واحدة فيناجزوهم فيها، ثم لا يرجعون عنهم حتى يحكم الله بينهم .

قال : فاجتمع رأي الروم كلهم على هذا .

قال : وكتب باهان إلى قيصر : أما بعد ، فإننا نسأل الله لك أيها الملك ، ولجندك ولأهل مملكتك النصر ، ولدينك وأهل سلطانتك العز ، فإنك قد بعثتني فيما لا يحصيه من العدد إلا الله ، فقدمت على قوم ، فأرسلت إليهم ، فهيبّتهم ، فلم يهابوا ، وأطمعّتهم فلم يطمعوا ، وخوّفّتهم فلم يخافوا ، وسألّتهم الصلح فلم يقبلوا ، وجعلت لهم الجُعْل على أن ينصرفوا فلم يفعلوا ، وقد دُعر منهم جندك ذعراً شديداً ، وقد خشيت أن يكون الفشل قد عمّهم ، والرعب قد دخل في قلوبهم ، إلا أن منهم رجالاً قد عرفتهم ليسوا بفُرار من عدوهم ، ولا شكّاك في دينهم ، ولو قد لقوهم لم يفروا حتى يظهروا أو يُقتلوا ، وقد جمعت أهل الرأي من أصحابي وأهل النصيحة لملكنا وديننا فاجتمع رأيهم على النهوض إليهم جميعاً في يوم واحد ، ثم لانزائليهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

قال : وكان باهان رأى رؤيا ، وكتب بها إلى ملك الروم في كتابه هذا : وقد أتاني آت في منامي فقال لي : لا تقاتل هؤلاء القوم فإنهم إذْ نُ يهلكونك ، فلما انتبهت من منامي عبّرت أنه من الشيطان أراد أن يحزنني فخسأته ، فإن يكن الشيطان فقد خسأته ، وإلا يكن الشيطان فقد تبين لي الأمر ، فابعث أنت أيها الملك بثقلك وخدمك ومالك فألحقهم بأقصى بلادك وانتظر وقعتنا هذه ، فإن أظهرنا الله عليهم حمدت الله الذي أعزّ دينك ، ومنع سلطانتك ، وإن هم ظهروا علينا

فارض بقضاء الله ، واعلم أن الدنيا زائلة عنك ، كما زالت عمن كان قبلنا ، ولاتأسف منها على مافاتك ، ولا تغتبط منها بشيء مما في يديك ، والحق بمعاقلك وبقدر مملكتك ، وأحسن إلى رعيتك وإلى الناس يحسن الله إليك ، وارحم الضعفاء والمساكين تُرحم ، وتواضع لله يرفعك ، فإن الله لا يحب المتكبرين ، والسلام (١) .

استعداد الجيشين للمعركة :

قال : ثم إن باهان خرج إلى المسلمين في يوم ذي ضباب ورذاذ، فصف له عشرين صفًا لأبى طرفاهم ، ثم جعل على ميمنته وميسرته، فجعل ابن قناطر على ميمنته، وجعل معه جرجير في أهل أرمينية ، وجعل الدرنجار في ميسرته، وكان من خيارهم ونساکهم، فأقبلوا نحو المسلمين .

فلما نظر إليهم المسلمون وقد أقبلوا كأنهم الجراد قد ملؤوا الأرض كأنهم أعراض الجبال نهضوا إلى راياتهم .

وجاء خالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة إلى أبي عبيدة، وهم الأمراء الذين كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمرهم وبعثهم إلى الشام، فأتوا أبا عبيدة ومعه معاذ لايفارقه فقالوا له : إن هؤلاء قد رحفوا إلينا في مثل هذا اليوم المطير، وإننا لا نرى أن نخرج إليهم فيه إلا أن يأتونا حتى يُلْطَوْا (٢) بعسكرنا ، أو يضطرونا إلى ذلك .

قال فإنكم قد أصبتم .

(١) فتوح الشام / ٢٠٨ - ٢١٠ .

(٢) أي يلتصقون .

قال : وخرج أبو عبيدة ومعه معاذ بن جبل ، فصفوا الناس وعبّوهم ، ووقفوهم على مراكزهم .

وأقبلت الروم في المطر ، ووقفوا ساعة ، وتصبّروا عليه ، فلما رأوا أن ذلك لا يقلع ولا ينقطع انصرفوا إلى عسكرهم .

قال : ودعا الدرنجار ، وكان فيهم ناسكا ، رجلا من العرب ممن كان على دين النصرانية ، فقال له : ادخل في عسكر هذا القوم ، فانظر ما هديهم وما حالهم وما أعمالهم وما يصنعون وكيف سيرتهم؟ ثم القني بها .

فخرج ذلك الرجل حتى دخل عسكر المسلمين ، فلم يستنكروه لأنه كان رجلا من العرب ، لسانه ووجهه ، فمكث في عسكرهم ليلة حتى أصبح ، فوجد المسلمين يصلون الليل كله كأنهم في النهار ، ثم أصبح ، فأقام عامة يومه ، ثم خرج إليه ، فقال له :

جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون ، ويصومون النهار ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، رهبان بالليل ، أسد بالنهار لو يسرق ملكهم لقطعوا يده ، ولو زنى لرجموه ، لإيثارهم الحق ، واتباعهم إياه على الهوى .

فقال : لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم ، وكما ذكرت لبطن الأرض خير لمن يريد قتالهم ولقاءهم من ظهرها (١) .

لقد كان ذلك الرجل النصراني لمّا حآ سريعا الفهم ، حيث فهم مزايا المسلمين العالية بتلك السرعة وكان صادقا عادلا حيث أبرز تلك المزايا لمن بعثه بأمانة ، وهي صفات جذابة لأصحاب العقول السامية

(١) فتوح الشام / ٢١٠ - ٢١١ .

والأفكار السليمة ، وفي نفس الوقت هي صفات مرغبة للأعداء ، لأن الذين بلغوا ذلك الحد من العبادة وأقاموا حياتهم على العدل والحق ، لا بد أنهم سيُحفظون بحب الله تعالى ونصره وتأييده ، ولا بد أن تكون نفوسهم قوية وثابة نحو المعالي ، بحيث تستنفد كل طاقات أجسامها في خدمة أهدافها السامية ، وفي سبيل ذلك تُدُلُّ جميع الصعوبات وتستعين بجميع العوائق والعقبات ، ومن كان الله جل وعلا معه فلن يُخذَل ، ومن كان يحمل نفساً قوية فلن يُغَلَب ، فلذلك ندم الدرّنجار على قتال هؤلاء المسلمين المصطفين الأخيار .

وفي رواية للطبري أن رجلاً قال لخالد بن الوليد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر براء من توجيّه^(١) وأنهم أضعفوا في العدد^(٢) .

وهذا مثل على شجاعة خالد وقوة إيمانه وثقته العالية بنصر الله تعالى ، حيث لا ينظر إلى عدد الأعداء مهما بلغوا ، وقد حاول بكلامه هذا تعديل موازين المعركة ، حيث إن الأعداء يبلغون عشرة أضعاف المسلمين ، فلا بد أن يوازن ذلك قوة عالية في الروح المعنوية لدى المسلمين تُعوض ذلك الفرق الكبير في العدد .

عيون للمسلمين :

فلما كان الغد خرجوا أيضاً في يوم ذي صباب ، وأتى المسلمين رجال من العرب كانوا نصارى فأسلموا .

(١) أي مما أصاب أقدامه من الحفا .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٧ - ٣٩٨ .

فقال لهم أبو عبيدة ، وخالد بن الوليد: ادخلوا في عسكر الروم، فاكتموهم إسلامكم، وألقونا بأخبارهم، فإن في هذا لكم أجراً، والله حاسبه لكم جهاداً، فإنكم تدفعون بذلك حرمة الإسلام، وتدلّون على عورة أهل الشرك، فانطلقوا ، فدخلوا عسكر الروم، ثم جاءوا بعد ما مضى من الليل نصفه .

فأتوا أبا عبيدة بن الجراح، فقالوا له : إن القوم قد أوقدوا النيران، وهم يتعبون لكم ، ويتهاون لقتالكم، وهم مصبحوكم بالغداة، فما كنتم صانعين، فاصنعوا الآن .

فخرج أبو عبيدة ، ومعاذ بن جبل، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وعمر بن العاص فعبّوا الناس، وصففوفهم، فلم يزالوا في ذلك حتى أصبحوا (١) .

مبشرات بالنصر :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من حديث راشد بن عبد الرحمن الأزدي قال، صلى بنا أبو عبيدة بن الجراح يومئذ صلاة الغداة في عسكره، في الغداة التي لقينا فيها الروم باليرموك، فقرأ في أول ركعة ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ فلما مرّ بقول الله عز وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٢) قلت في نفسي ظهرنا والله على القوم للذي أجري على لسانه، وسُررت بذلك

(١) فتوح الشام / ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) سورة الفجر الآيات / ١ - ١٤ .

سروراً عظيماً، وقلت: عدونا والله هذا نظير هذه الأمة في الكفر والكثرة والمعاصي .

قال : ثم قرأ في الركعة الثانية ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ فلما مرَّ بقول الله عز وجل ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ إلى خاتمة السورة (١) فقلت في نفسي وهذه أخرى إن صدق (٢) ليصبنَّ الله عليهم صوط عذاب، وليُدمِّدمنَّ عليهم كما دمدم على هذه القرون من قبله .

قال : فلما قضى أبو عبيدة صلاته أقبل على الناس بوجهه، فقال: أيها الناس أبشروا ، فإنني رأيت في ليلتي هذه فيما يرى النائم كأن رجلاً أتوني، فحفُّوا بي، وعليَّ ثياب بيض، ثم دعوا لي رجلاً منكم أعرفهم، ثم قالوا لنا : أقدموا على عدوكم ولا تهابوهم، فإنكم الأعلون، وكأننا مضينا إلى عسكر عدونا، فلما رأونا قاصدين إليهم انفرجوا لنا انفراج الرأس، وجئنا حتى دخلنا عسكرهم وولَّوا مدبرين . فقال له الناس : أصلحك الله نامت عينك، هذه بشرى من الله، بشرك الله بخير .

فقال أبو مرثد الخولاني، وأنا أصلحك الله قد رأيت رؤيا، إنها لبشرى من الله، وإنني رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأننا خرجنا إلى عدونا، فلما توقفنا صبَّ الله عليهم من السماء طيراً بيضا عظاما، لها مخالب كمخالب الأسد، وهي تنقض من السماء انقضاض

(١) سورة الشمس الآيات / ١١ - ١٥ .

(٢) أي ظننى وما قلت في نفسي .

العُقْبَان ، فإذا حاذت بالرجل من المشركين ضربته ضربة يخسرُ منها منقطعاً ، وكأنَّ الناس يقولون ، أبشروا معاشر المسلمين ، فقد أيدكم الله عليهم بالملائكة .

قال : فتباشر المسلمون بهذه الرؤيا ، وسرُّوا بها .

فقال أبو عبيدة : وهذه والله بشرى من الله ، فحدثوا بهذه الرؤيا الناس ، فإن مثلها من الرؤيا يشجّع المسلم ، ويحسن ظنه وينشطه للقاء عدوه .

قال : وانتشرت هذه الرؤيا ورؤيا أبي عبيدة في المسلمين ، وفرحوا واستبشروا بهما (١) .

وهكذا نرى أن الله جل جلاله مع المؤمنين بنصره وتأييده ، ولاشك أن هذه الرؤى كان لها الأثر البالغ في رفع معنوية المسلمين .

هذا ومما ينبغي ذكره أن هذا النصر من الله تعالى للمؤمنين ، وتسكين قلوبهم ، ومنحهم البشرى والسرور قبل الدخول في المعركة لم يكن لمجرد كونهم مسلمين في الظاهر وإنما ذلك لكونهم من المؤمنين الصادقين الذين لم يتسرب إلى قلوبهم اعتبار أي قوة من قوى الأرض ، ولم يستلهموا النصر والتأييد إلا من الله تعالى ، وكانت ثقتهم به عظيمة واعتمادهم عليه وحده في طلب النصر .

ومن هنا ندرك الفرق الكبير بين جيوش الصحابة رضي الله عنهم وجيوش كثير من المسلمين بعد ذلك ، حيث تخلف النصر عنهم وتسلط الأعداء عليهم ، لأنهم كانوا لا يذكرون الله تعالى في حروبهم

(١) فتوح الشام / ٢١٢ - ٢١٤ .

إلا قليلا فتخلى الله عنهم ووكّلهم إلى حولهم وقوتهم .

ومع إيمان الصحابة الراسخ بأن الله تعالى مع أوليائه في شدتهم وورخائهم فإنهم لم يعتمدوا على التوكل وحده ، بل قاموا بتحقيق كل ما أمكنهم من أسباب النصر المعروفة ، فجمعوا جيوشهم في جيش واحد واختاروا المكان المناسب وطلبوا المدد من أمير المؤمنين ، إلى غير ذلك من الأسباب ، مع استصحاب التوكل على الله تعالى وطلب المدد منه في كل أحوالهم ، واعتبار أن العمل بالأسباب المادية من طاعة الله تعالى فهو الذي أمرهم بإعداد القوة للكفار ، والاجتماع لقتالهم ، وطاعة الأمراء ، فحققوا كل عوامل النصر التي تخضع لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ .

إنذار الروم بالهزيمة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني أبو جهضم الأزدي عن رجل من الروم - وحدثني في خلافة عبد الملك ابن مروان - أن رجلا من عظماء الروم أتى باهان في صبيحة الليلة التي خرج إلى المسلمين باليرموك فقال : إني رأيت رؤيا ، وأريد أن أحدثك بها ، قال : هاتها .

قال : رأيت كأن رجلا نزلوا إلينا من السماء طوالا أحدهم أبعد من مدّ بصره ، فنزعوا سيوفنا من أعمادها ، وأسنة رماحنا من أطرافها ، ثم لم يدعوا منا رجلا إلا كَتَفُوهُ ، ثم قالوا لنا ، اهربوا فأكثركم هالك ، فأخذنا نهرب ، فمننا من يسقط على وجهه ، ومننا من يتبلّد لا يستطيع أن يبرح من مكانه ، ومننا من يحلّ كتافه ، ثم يسعى حتى لانراه .

قال له باهان : أما من رأيت يسقط على وجهه ، ومن رأته يتبلد ولا يطيق أن يسعى ، ولا يتنحى من مكانه فهؤلاء الذين يهلكون ، وأما الذي رأيت يحلّون كتافهم ويسعون فلا تراهم ، فأولئك الذين ينجون .

ثم قال له باهان : أما إذ رأيت [ما رأيت] فو الله لا تسلم مني أبداً ، فوجهك الوجه الذي بشر بالشر ، وقط من الخير ، أأنت أنت الذي كنت أشد الناس عليّ في أمر الرجل الذي قتل من أهل الذمة رجلاً ؟ فأردت أن أقتله به ، فكنت أنت أشد الناس عليّ في أمره ، حتى عطلت حداً من حدود الله وتركته وكان من الحق عليّ أن أقيمه ، فحلّت بيني وبينه في جماعة من السفهاء ، وتركت كراهية أن أفرق جماعتكم ، أو أن أفرق بينكم ، أو أن يضرب بعضكم بعضاً ، فأما الآن فقد حدثت نفسي بالموت ، وإنما ألقى القوم من ساعة ، فإن شئتم الآن فتفرقوا ، وإن شئتم فاجتمعوا ، فأنا أتوب إلى الله تعالى من ترك ذلك الحدّ يومئذ ، فإنه لم يكن يسعني ولا ينبغي لي إلا قتله ولو قتلتُموني معه .

ثم أمر به فضربت عنقه ، وطلب الرومي الذي كان قتل الذمي ، فهرب منه ، ولم يقدر عليه .

قال أبو جهضم : فسألت الرومي : ما كان من قصة ذلك الرومي ؟

قال : إن بطريقاً من بطارقة الروم نزل بيت رجل من أهل الذمة ، وكان عظيمًا من عظمائهم وأشدائهم ، فوقع على امرأة الذمي

فنكحها، فجاء زوجها ليمنعه فقتله، فخرج أخوه فاستعدى عليه أميرهم الأعظم باهان، وأخبره خبره .

فدعاه باهان فقال : أحق ما يزعم هذا ؟ قال . نعم .

قال : وما حملك على ما صنعت ؟

قال . إنما هي أمتي ، وإنما زوجها عبدي ، أتمنعي أن أقضي لذتي من أمتي ؟ وتريد أن تقتلني بعبدي ؟

قال باهان : الحق أن أقتلك به ، وأن أمنع نساءهم من أشباهك ، فقام رجال كثيرون من سفهاء الروم وشرارهم فقالوا : أقتل رجلا من عظمائنا وأشرفنا بعد من عبيده ؟ فمنعوه من ذلك ، وكان ذلك الرجل الذي قتله باهان من أشدهم يومئذ على باهان .

فقال له باهان : أما أنتم فقد أتيتم أمراً عظيماً ، وعصيتم ربكم ، وأغضبتموه عليكم وإذا غضب على قوم فهو ينتقم منهم ، ثم كف عنهم .

فقال أخو المقتول لباهان : أنا إذا لم تُعَدني عليهم فإنني استعدي عليهم ملك السماء (١) .

وهكذا في الوقت الذي ارتفعت فيه معنوية المؤمنين بما أراهم الله في المنام من البشرى انحطت معنوية الكفار بما أراهم الله في المنام من الرعب والإرهاب ، فقد أصاب "باهان" اليأس وأيقن بالهزيمة والموت ، ولذلك أقدم على عمل يختلف عما عرف عنه من الحكمة والسياسة ، حيث قتل الرجل الذي أخبره بهذه الرؤيا مع أنه من عظماء

(١) فتوح الشام / ٢١٤ - ٢١٦ .

الروم ، وكانت الحكمة تقتضي أن يمنعه من نشر هذه الرؤيا لأن قتله يكون سبباً في انتشارها ، ومما يدل على بأسه من النصر أنه بعد أن ذكر سبب عدم إقامته الحد على مرتكب الذنب سابقاً وهو خوفه من أن يفرّق جماعة الجيش قال : فأما الآن فقد حدثت نفسي بالموت وإنما ألقى القوم من ساعة فإن شئتم الآن فتفرقوا وإن شئتم فاجتمعوا فأنا أتوب إلى الله تعالى من ترك ذلك الحد يومئذ فإنه لم يكن يسعني ولا ينبغي لي إلا قتله ولو قتلتموني معه .

استعداد الجيشين للمواجهة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : حدثني الصقعب ابن زهير عن المهاجر بن صيفي عن راشد بن عبد الرحمن الأزدي قال : خرج إلينا باهان يوم اليرموك في يوم ذي ضباب ، فخرج إلينا في عشرين صفاً ، وهم في نحو من أربعمئة ألف ، فجعل ابن قناطر في ميمنته ، وجعل معه جرجير صاحب أرمينية ، وجعل الدرنجار في ميسرته ، وكان من نساكهم ، ثم زحف إلى المسلمين مثل الليل والسيل .

وأصبح المسلمون طيبة نفوسهم بقتال المشركين ، وقد شرح الله لهم صدورهم ، وشجع قلوبهم على لقاء عدوهم ، فهم أشد شيء بصيرة ، وأحسنه نية على باهان ، وأعظمه حسبة ، وأحرصه على لقائهم . فأخرجهم أبو عبيدة ، وجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته قُبَاث بن أَشْثِيم ، وجعل على الرّجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وجعل على الخيل خالد بن الوليد .

وكان الأمراء، يزيد بن أبي سفيان على ربع، وشرحبيل بن حسنة على ربع، وعمر بن العاص على ربع، وأبو عبيدة على ربع .

وخرج الناس على راياتهم، وفيها أشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبائلهم، وفيها الأزد، وهم ثلث الناس، وفيها حمير، وهم عظم الناس. وفيها همدان، وخولان، ومذحج، وخثعم، وقضاعة، ولخم وجذام، وغسان، وعاملة، وكندة، وحضرموت، ومعهم جماعة من كنانة، ولكن عظم الناس من أهل اليمن، ولم يحضرها يومئذ أسد ولا تميم ولا ربيعة، ولم تكن دارهم هنالك، وإنما كانت دارهم عراقية، فقاتلوا فارس بالعراق .

فلما برز المسلمون إليهم سار أبو عبيدة في المسلمين، ثم قال : يا عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، فإن وعد الله حق، يامعشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار - أي مفشلة - فلا تبرحوا مصافكم ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدءوهم بقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى أمركم إن شاء الله .

قال : وخرج معاذ بن جبل يقص على الناس ويقول : يا قرناء القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى وأولياء الحق، إن رحمة الله والله لا تنال وجنته لا تدخل بالأمانى ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل، ألم تسمعوا قول الله عز وجل ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ .. الآية (١)

(١) سورة النور / ٥٥ .

أَنْتُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْصُورُونَ ﴿١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢﴾ واستحيوا من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم ، وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحد منكم ملجأ ولا ملتجأ من دونه ، ولا مُتَعَزِّزٌ بغير الله ، فجعل يمشي في الصفوف ، ويحرضهم ويقص عليهم ، ثم انصرف إلى موقفه .

وقال أبو إسماعيل الأزدي وحدثني محمد بن يوسف عن ثابت ابن سهل بن سعد الأنصاري قال ، ومر عمرو بن العاص على الناس يومئذ ، فجعل يعظهم ويقص عليهم ويحرضهم ، ويقول : أيها الناس غُضُّوا أبصاركم ، واجثوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ، والزموا مراكزكم ومصافكم ، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثوب الأسد ، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ويعاقب عليه ، ويجزي بالإحسان لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كَفَرًا كَفَرًا (٢) ، وقَصْرًا قصراً ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشدة لقد انذعروا انذعار أولاد الحجل (٣) .

قال : وكان أبو سفيان يومئذ يسير في الناس ، ويقف على أهل كل راية وعلى كل جماعة ، فيحرض الناس ويحرضهم ويعظهم ويقول :

(١) سورة الأنفال الآية ٤٦ .

(٢) أي بلدا بلدا .

(٣) الحجل نوع من الطيور .

إنكم يامعشر المسلمين أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الإبل ،
نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين ، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو
كثير عددهم ، شديد عليكم حنقهم ، وقد وترتموهم في أنفسهم
ونسائهم ، وأولادهم وأموالهم وبلادهم ، فلا والله لا ينجيكم منهم
اليوم وتبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء والصبر في مواطن
المكروهة ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتقربوا بها إلى خالقكم ، ولتكن هي
الحصون التي تلجؤون إليها ، وبها تُمنعون (١) .

هذا ولقد كان لكلمات هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم وأمثالها
أثر بالغ على عموم المسلمين ، فإن الموقف كان شديداً تعلوه الرهبة
والتخوف من وقع المفاجأة حينما يقابل الفرد المسلم عشرة من الكفار ،
فكان لابد من قيام أهل الشجاعة والرسوخ في العلم من تثبت أفراد
الجيش الإسلامي ليواجهوا هول الصدمة بالثبات والصبر .

وصف المعركة :

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن
سعيد الأنصاري قال وزحف الروم إلى المسلمين وهم يزفون زفاً ،
ومعهم الصلبان ، وأقبلوا بالأساقفة والقسيسين والرهبان ، والبطارقة
والفرسان ، ولهم دويّ كدوي الرعد ، وقد تباعع عظمهم على الموت ،
ودخل منهم ثلاثون ألفاً ، كل عشرة في سلسلة لثلا يفروا .

فلما نظر إليهم خالد بن الوليد مقبلين أقبل إلى نساء المسلمين

(١) فتح الشام / ٢١٧ - ٢٢٠ ، وانظر تاريخ دمشق ١٤٨/٢ - ١٤٩ .

وهنَّ على تل مرتفع في العسكر ، فقال : يانساء المسلمين ، أيما رجل أدركتته منهزماً فاقتلته فأخذن الخناجر ، ثم أقبلن نحو المسلمين ، فقلن : لستم ببعولتنا إن لم تمنعونا اليوم .

وأقبل خالد إلى أبي عبيدة فقال له : إن هؤلاء قد أقبلوا بعدد وجدٍّ وحدٍّ وإن لهم لشدة لايردها شيء ، وليست خيل المسلمين بكثيرة ، ولا والله لاقامت خيلي لشدة حملتهم وخيلهم ورجالهم أبداً ، وخيل خالد يومئذ أمام صفوف المسلمين ، والمسلمون ثلاثة صفوف .

قال خالد : فقد رأيت أن أفرق خيلي فأكون أنا في إحدى الخيلين ، ويكون قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى ، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة . فإذا حملوا على الناس ، فإن ثبت المسلمون ، فالله ثبتهم وثبت أقدامهم ، وإن كانت الأخرى حملنا عليهم بخيولنا ، وهي جامئة على ميمنتهم وميسرتهم ، وقد انتهت شدة خيلهم وقوتها ، وتفرقت جماعتهم ، ونقضوا صفوفهم ، وصاروا نَشْراً ، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال ، فأرجو عندها أن يظفرنا الله بهم ، ويجعل دائرة السوء عليهم .

وقال لأبي عبيدة : قد رأيت لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا ، وتقف أنت من ورائه في جماعة حسنة ، فتكونوا رداءً للمسلمين .

فقبل منه أبو عبيدة مشورته ، وقال : افعل ماأراك الله ، وأنا فاعل ماذكرت ، فأمر أبو عبيدة سعيد بن زيد ، فوقف في مكانه ، وركب

أبو عبيدة، فسار في الناس يحرضهم، ويوصيهم بتقوى الله والصبر، ثم انصرف، فوقف من وراء الناس ردءاً لهم (١).

وهكذا لما اقترب الروم من المسلمين وفقَّ الله خالد بن الوليد إلى خطة تكمل مبادأه من خطته السابقة التي قسم بها الجيش إلى أربعين كتيبة تقريباً، وذلك أنه رأى ضخامة جيش الروم وما يتقدمه من الخيول التي تزيد عن خيول المسلمين أضعافاً، فأدرك أنه سيكون لهم شدةٌ عنيفة تؤثر فيمن يواجههم، وهو يدرك بألمعيته وخبرته الحربية العالية أن مقاومة الجيوش الضخمة بجيوش لا تزيد عن عشرين لا يكون بمجرد المواجهة والاعتماد على الشجاعة والصبر والثبات، وإنما لابد مع ذلك من أعمال الفكر واستعمال الحيل، وذلك في تتبع نقاط الضعف لدى الأعداء ثم الاستفادة من ذلك بالهجوم المركز الذي ييهت الأعداء ويحول بينهم وبين الاستفادة من طاقتهم، فيبقى أكوام منهم معطلين لا يستطيعون المواجهة بمفردهم.

ونتيجة لهذا التفكير فقد رأى خالد أن يقسم خيله قسمين، يكون هو على رأس قسم منهما وعلى الآخر قيس بن هبيرة المرادي الذي كان يعتبر الرجل الثاني في الفروسية بعد خالد، فيكون أحدهما خلف ميمنة المسلمين والآخر خلف ميسرتهم، حتى إذا انتهت شدة فرسان الروم الأولى واختلطوا بجيش المسلمين خرج لهم خالد وقيس بفرسان المسلمين من الميمنة والميسرة فأوقعوا الخلل في صفوفهم.

قال محمد بن عبد الله الأزدي في سياق خبر ثابت بن سهل

(١) فتوح الشام / ٢٢٠ - ٢٢١، وانظر تاريخ دمشق ٢ / ١٥٠ - ١٥١.

الأنصاري : وأقبلت الروم كقطع الليل حتى إذا حاذوا الميمنة نادى معاذ ابن جبل الناس ، فقال : يا عباد الله المسلمين ، إن هؤلاء قد تيسروا للشدة عليكم ، ولا والله لا يردهم إلا صدق اللقاء والصبر على البأساء ، ثم نزل عن فرسه : وقال : من أراد أن يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذه ، فوثب إليه ابنه عبد الرحمن بن معاذ وهو غلام حين احتلم . فقال : يا أبت ، إني لأرجو أن أكون أنا فارساً أعظم غناء عن المسلمين مني راجلاً ، وأنت يا أبت راجل أعظم غناء منك فارساً ، وعظم المسلمين رجالة ، وإذا رأوك صابراً محافظاً صبروا إن شاء الله وحافظوا .

فقال له معاذ بن جبل : وفقني الله وإياك يا بني لما يحب ويرضاه ، فقاتل معاذ وابنه قتالا ما قاتل مثله كثير من المسلمين .

ثم إن الروم تحاضوا وتداعوا ، وقصّت عليهم الأساقفة والرهبان ، وقد دنوا من المسلمين ، فإذا سمع معاذ ذلك منهم قال : اللهم زلزل أقدامهم ، وأرعب قلوبهم ، وأنزل علينا السكينة ، وألزمنا كلمة التقوى ، وحبب إلينا اللقاء ، ورضنا بالقضاء .

قال : وخرج باهان صاحب الروم ، فجال في أصحابه وتيسر ، وأمرهم بالصبر والقتال دون ذرائعهم وأموالهم وسلطانهم وبلادهم ، ثم بعث إلى صاحب الميسرة أن أحمل عليهم ، وكان عليها الدرّنجار ، وكان متنسكاً ، فقالت البطارقة والرؤوس الذين معه : قد أمركم أميركم أن تحملوا عليهم .

قال : وتهيات البطارقة ، ثم شدوا على الميمنة ، وفيها الأزد ،

ومذحج وحضرموت وحمير وخولان ، فثبتوا حتى صدقوا ، واقتتلوا قتالا شديداً .

ثم إنه ركبهم من الروم أمثال الجبال ، فأزالوا المسلمين من الميمنة إلى ناحية من القلب ، فانكشفت طائفة من المسلمين إلى المعسكر ، وثبت عظم الناس فلم يزولوا ، وقاتلوا تحت راياتهم ولم ينكشفوا ، ولم تنكشف يومئذ زييد وهي في الميمنة ، وفيهم الحجاج بن عبد يغوث أبو عمرو بن الحجاج ، فنادى : يا خيفان^(١) يا خيفان ، فاجتمعوا إليه ، ثم شدوا على الروم ، وهم في نحو من خمسمائة رجل شدة شديدة ، فلم يتنهئوها حتى خالطوا الروم ، ثم قاتلوا قتالا شديداً ، وشغلوهم عن اتباع من انكشف من المسلمين ، وشدت عليهم حمير وحضرموت وخولان بعدما كانوا زالوا ، ثم رجعوا إلى مواقفهم حتى وقفوا في الصف حيث كانوا .

واستقبلت النساء المسلمين وهم منهزمون ، ومعهن العناهر (وقال العناهرُ عمد البيوت) فأخذن يضربن بها وجوههم .

قال سهل بن سعد : أخذت خولة ابنة ثعلبة بن مالك بن الدخشم عموداً من تلك العمد ، ثم أقبلت نحو المنهزمة وهي ترتجز وتقول :

يَاهَارِبًا عَنْ نِسْوَةٍ تَقِيَّاتٍ رُمِيتَ بِالسَّهْمِ وَبِالْمِنِيَّاتِ
فَعَنْ قَلِيلٍ مَا نَرَى سِيَّاتٍ غَيْرَ حَظِيَّاتٍ وَلَا رِضِيَّاتٍ^(٢)

كل هذا وخالد بن الوليد يقف بخيله خلف الميمنة ينتظر اللحظة

(١) الخيفان الكثرة من الناس .

(٢) فتوح الشام / ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥١/٢ - ١٥٢ .

المناسبة للهجوم الكاسح الذي يرجو أن يحسم به المعركة، وكان قد توقع حدوث بعض الخلل في جيش المسلمين لأنه يدرك ضخامة العبء الذي سيصبُّ على المسلمين حيث سيواجه ثلاثة صفوف من المسلمين عشرين صفًا من الروم، فوضع خطته الحربية التي نوهنا عنها سابقًا، وقد حان له الآن تنفيذها، فهجم بخيله هجومًا قويًا شديدًا على جيش الروم من جانب ميسرتهم فقتل منهم في حملته تلك نحوًا من عشرة آلاف ودخل كثير منهم معسكر المسلمين مجرحين وهاربين من عنف الهجوم الكاسح، ولما قضى خالد على هجوم الروم ورفع الضغط عن المسلمين عاد يتتبع بفرسانه الروم الذين دخلوا معسكر المسلمين، ثم جمع خيله ونادى فيهم وفي عموم الجيش : يا أهل الإسلام لم يبق عند القوم من الجلد والقتال والقوة إلا ما قدر أيتم، فالشدَّة الشدة، فو الذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم .

فجعل لا يسمع هذا القول من خالد أحد من المسلمين إلا شجعه عليهم (١) .

وقد كان خالد جعل خلف الميسرة نصف الفرسان بقيادة قيس بن هبيرة حسب خطته السابقة وقد قام قيس بمثل الهجوم الذي قام به خالد في الميمنة، فإنه لما أحس بأن فرسان الروم قد فقدوا كثيرًا من طاقتهم واشتدت الوطأة على المسلمين هجم بفرسانه من جانب ميمنة

(١) فتوح الشام / ٢٢٥ - ٢٢٦ . وانظر تاريخ دمشق ١٥٤ / ٢ .

الروم فقصف بعضهم على بعض كما فعل خالد وقتل منهم عددًا كبيراً^(١) .

أما قلب الجيش الإسلامي فقد كان في مقدمته سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عم عمر بن الخطاب وأحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم أجمعين وقد كان أسدًا في الحروب لايهاب الأهوال، ولهذا كان أبو عبيدة يختاره للمقدمة لتفوقه في الثبات أمام الأعداء، ومن ورائه شرحبيل بن حسنة، ثم أبو عبيدة في جماعة من المسلمين. وقد كان في مقابلهم من جيش الروم جبلة بن الأيهم في عرب الشام، والأرمن بقيادة جرجير فتوجهوا إليه كأمثال الجبال ولكن موجاتهم العاتية تحطمت أمام ثبات سعيد بن زيد ومن معه من الأبطال، فثبت قلب الجيش الإسلامي ولم يتزعزع، وكان من أهم عوامل ثباته وجود أبي عبيدة في كتيبة من وجوه المسلمين خلف القلب، فكان من أوجعه حر القتال وفكر في أن ينهزم يستحي أن يمرَّ بأبي عبيدة وهو منهزم، وإن وجود أبي عبيدة خلف الجيش جزء من خطة خالد التي سبق ذكرها وقد تبينت نتائجها الحسنة في سير المعركة .

وفي الإشادة بجهود سعيد بن زيد يقول حبيب بن مسلمة: اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد، فلله در سعيد، ماسعيد يومئذ إلا مثل الأسد، جثا والله على ركبته حتى إذا دنوا منه وثب في وجوههم مثل الليث فطعن برايته أول رجل من القوم فقتله، وأخذ والله يقاتل راجلا قتال الرجل الشجاع البأس فارسا^(٢) .

(١) فتوح الشام / ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) فتوح الشام / ٢٢٨ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥٥ / ٢ .

هذا وقد نجحت خطة خالد بالهجوم المباغت بفرسان المسلمين من جانبي جيش الروم ، فاستطاع بذلك أن يفصل بين مشاة الروم الذين مايزالون في مصافهم وبين فرسانهم الذين دخلوا في جيش المسلمين وخرج كثير منهم من الخلف .

وقد ساعد على نجاح هذه الخطة قلة كثافة الجيش الإسلامي فكان فرسان الروم يخترقونه بسرعة ، ثم يهرب كثير منهم في الصحراء ، خاصة بعد هجوم فرسان المسلمين ، والروم كغيرهم من الكفار ليس لديهم استعداد للتضحية بأنفسهم ، فإن أهم شيء عندهم وقاية أنفسهم من الخطر ، وقد كانوا قبل هذه المعركة يفرون من أول لقاء مع المسلمين ، فجاءت تعليمات هرقل لباهان أن يختار للجيش مكانا واسع المطرد ضيق المهرب ، فاختار ذلك المكان المقفل من الجهات الثلاث بحيث لا يمكن الهروب إلا باختراق جيش المسلمين ، ونظراً لخبرة المسلمين بالروم فقد أفسحوا لهم المجال للمهرب فكان من يخترق جيشهم لا يرجع إلى قومه في الغالب فأصبح مشاة الروم بدون فرسان في مواجهة المسلمين ، عند ذلك نهد خالد بالجيش كله للهجوم على جيش الأعداء وقد كان معظمهم من المشاة ، وقد ابتدأ الهجوم من القلب حيث أمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو أن ينشبا القتال الشامل وكانا على مجنبتَي القلب .

فأنشبا القتال وارتمز القعقاع وقال :

ياليتني ألقاك في الطراد قبل اعترام الجحفل الوراد

وأنت في حلبتك الوراد

وقال عكرمة :

قد عَلِمْتُ بِهَكَّةَ الجوّاري أَنِّي على مَكْرُمَةٍ أُحامي (١)

وشد المسلمون عليهم جميعاً شدةً واحدةً ، وكان الأعداء في رعب شديد لما وقع لفرسانهم ، فكانت مقاومتهم ضعيفة جداً ، حتى شبَّههم بعض الرواة بالحائط كما جاء في رواية للطبري « وأقبل خالد والمسلمون على الرَّجُل - يعني المشاة - ففضَّوهم فكأنما هُدم بهم حائط » (٢) .

ومازال المسلمون يقتلونهم وهم يتراجعون إلى الخلف ، حتى اقتحموا خندقهم فاقتحمه المسلمون معهم ، ومازال المسلمون يقتلون منهم وهم يتراجعون إلى الخلف حيث يسرون إلى مهلكهم ، ذلك أن مكان المعركة يضيق شيئاً فشيئاً بين نهر الرقاد ونهر اليرموك حتى يلتقيان في الأخير ، واستمر المسلمون في قتالهم ودفعهم حتى أظلم الليل عليهم ، والمسلمون يواصلون القتال ، حيث لا يمنعهم من ذلك ظلام الليل ولاطول جلاد ، إلى أن تهافت الروم في هاوية سحيقة في نهر الرقاد ، فسميت تلك الهاوية الواقوسة لأن الروم وقصوا فيها ، وقد هلك منهم في الواقوسة نحو مائة وعشرين ألفاً ، وقد كان اقترن منهم بالسلاسل ثمانون ألفاً كل عشرة في سلسلة ، فكانوا إذا هوى منهم واحد هوى أصحابه المقترنون معه ، وقتل منهم في المعركة بعدما أدبروا نحو من خمسين ألفاً (٣) .

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٠ .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٠ ، فتوح الشام للأزدي / ٩٤ - ٩٥ .

وهكذا عاد تخطيطهم أكبر وبإل عليهم ، فلما كانت نقطة الضعف البارزة لديهم هي الفرار عند اللقاء حاولوا تلافي ذلك باختيار هذا المكان الذي يصعب الفرار منه ، وقرنوا جنودهم بالسلاسل من أجل أن لا يفرّوا ، فكان ذلك سبباً في هلاك هذا العدد الهائل منهم ، وهكذا يجعل الله تخطيط الكافرين وبإل عليهم ، ويهدي المسلمين إلى التخطيط الناجح المحطّم لعدوهم ، فله سبحانه الحمد والمنة .

وأخرج الأزدي من خبر حنظلة بن جُويّة قال : واتبعهم خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، على الخيل ، يقتلهم في كل واد وكل شعب ، وفي كل جبل وفي كل ناحية ، فلم يزل يقتلهم حتى انتهى إلى دمشق .

فخرج إليه أهل دمشق فاستقبلوه ، وقالوا : نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم .

فقال خالد لهم : أنتم على عهدكم .

ثم اتبعهم خالد ، فجعل يقتلهم في القرى والأودية ، وفي الجبال والشعاب ، والسهل والجبل ، وفي كل وجه .

فلم يزل يقتلهم حتى انتهى إلى حمص .

فخرج إليه أهل حمص ، فقالوا له مثل ما قال له أهل دمشق .

وقال لهم : نحن على ما كان بيننا وبينكم .

وأقبل أبو عبيدة على قتلى المسلمين ، يرحمهم الله ، وجزاهم عن الإسلام وعن أهله خيراً ، فدفنهم (١) .

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٣١ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥٨/٢ - ١٥٩ .

هذا وإننا حينما نتصور انتصار هذه الفئة القليلة التي لا تتجاوز
عُشر جيش عدو قد أقبل وهو مملوء بالغیظ والعداء ، وقد اكتسب
خبرة كافية في قتال المسلمين ، وتعاهد كبرائه على الموت في سبيل
الدفاع عن مملكة الروم . .

إننا حينما نتصور انتصار هذه الفئة على هذا العدو الهائل يملكنا
العجب، وتهیمن علينا الحيرة ، فإن هذا الانتصار في مقایس البشر
أقرب إلى الاستحالة .

إن الذي يتصوره الذهن المجرد أن جيش الروم الهائل سيطبق على
جيش المسلمين من كل جهة ، وسيشل حركتهم ويتركهم كأمس
الذاهب .

ولكن الذي يمحو هذا التصور من أذهاننا، والذي محاه قبل ذلك
من أذهان المسلمين آنذاك هو الإيمان الراسخ بأن المسلمين الصادقين
ليسوا وحدهم في الميدان، وإنما هم موصولون بقوة الله العلي القدير،
ومن كانوا كذلك فإنهم لا يُغلبون أبدا حتى يقع منهم الإخلال بشيء
من واجبه مع الله تعالى .

وفي ذلك يقول خالد بن الوليد في حال المشورة قبل المعركة :
« وإن كنا إنما نقاتلهم بالله ولله فما جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض
أنها تغني عنهم شيئا » .

وقد ثبت أن الله تعالى أمد أوليائه المؤمنين بالملائكة في أكثر من
موطن، فقد أمدهم في بدر وحنين، واعتبر سبحانه الشرط اللازم لهذا
الإمداد أن يتحلَّى المؤمنون بالتقوى والصبر كما جاء في قوله تعالى

﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] .

وقد كان الصحابة مثلاً أعلى في تقوى الله تعالى والصبر على حر القتال .

وإن هؤلاء الذين أمدهم الله تعالى في عهد النبوة بالملائكة قد حضر اليرموك منهم ألف صحابي منهم مائة من أهل بدر^(١) وصحبهم من التابعين من كانوا على نية صادقة واحتساب، وإن الصحابة الذين أمدهم الله تعالى بالملائكة في بدر وحنين لم يفقدوا في حروبهم بعد ذلك إلا شخص النبي ﷺ، ولكنهم ظلوا بعده على العهد لم يبدلوا ولم يغيروا، فحري بهم وهم كذلك أن تنزل عليهم الملائكة لنصرهم .

تحديد تاريخ المعركة :

تعتبر معركة اليرموك كبرى معارك المسلمين، ومع كونها بهذا الحجم الكبير وأنها المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم فقد اختلف المؤرخون في تاريخ حدوثها اختلافاً كبيراً، فنجد سيف بن عمر الضبّي يؤرخ لهذه المعركة في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر ويعتبرها أولى المعارك الكبرى في الشام ويعتمد ذلك ابن جرير الطبري، بينما نجد جمهور المؤرخين يعتبرونها في شهر رجب من العام الخامس عشر ويجعلونها آخر المعارك الكبرى في الشام، ومن قال بذلك ابن إسحاق والواقدي والأزدي وابن الكلبي والبلاذري وابن عساکر، وقد ذكر في ذلك تسعة أقوال، ثم قال: وهذه الأقوال هي

(١) البداية والنهاية ٩/٧ .

المحفوطة في تاريخ اليرموك ، وقد ذكر سيف بن عمر أنها كانت قبل فتح دمشق في أول خلافة عمر سنة ثلاث عشرة ، ولم يتابع على ذلك^(١).

وقال الإمام الذهبي : نزلت الروم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة ، وقيل سنة ثلاث عشرة وأراه وهماً^(٢) .

ولاشك بأن قول الجمهور بأنها كانت في العام الخامس عشر أرجح للدلائل التالية :

١- أن كثيراً من التفاصيل التي مر ذكرها لاتنطبق على كون المعركة في العام الثالث عشر وفي أواخر حياة الصديق رضي الله عنه ، ومن ذلك الرسائل المتبادلة بين أبي عبيدة وعمر رضي الله عنهما ، فهذا يدل قطعاً على أنها كانت في خلافة عمر ، والرسائل أكثرها كان قبل المعركة .

٢- أنه جاء في خطاب هرقل الذي خاطب به عظماء الروم بعد فتح المسلمين لحمص " وقد قاتلتموهم - يعني المسلمين - غير مرة بأجنادين وفحل ودمشق والأردن وفلسطين وحمص " فذكر معارك الشام الكبرى ولم يذكر اليرموك مع شهرتها مما يدل على أنها لم تحدث آنذاك .

٣- جاء في أحداث اليرموك أن باهان قائد الروم بعث إلى أبي عبيدة يقول له : أرسل إلي الرجل منكم الذي كان قبلك أميراً - يعني خالد بن الوليد - وهذا لاينطبق على كون المعركة في شهر جمادى

(١) البداية والنهاية ٧ ، فتوح البلدان للبلاذري / ١٨٦ ، تاريخ دمشق ٢ / ١٤١-١٤٢ .

(٢) تاريخ الإسلام / الخلفاء الراشدون / ١٣٩ .

الآخرة من العام الثالث عشر لأن الأمير كان آنذاك أبا عبيدة ثم كان خالدا بتأثير أبي بكر لهما .

٤- جاء في حوار خالد مع باهان قبيل المعركة قوله " وقد علمتَ وبلغك ما أسأل وما أطلب وما أدعو إليه ، وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منكم بأجنادين ومرج الصفر وفحل ومدائنكم وحصونكم " .
فهذا دليل على تأخر معركة اليرموك عن هذه المعارك المذكورة وعن فتح المدائن التي من أبرزها دمشق وحمص .

٥- جاء في أحداث معركة فحل أن عكرمة بن أبي جهل حضرها وكان له دور بارز فيها وأنه حضر اليرموك وقتل فيها ، فهذا دليل على تأخر معركة اليرموك عن معركة فحل .

٦- ذكر الإمام الطبري رواية عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : « كنت في الجيش الذي مع خالد الذين أمدَّ بهم أبا عبيدة وهو محاصر دمشق ... » (١) .

فهذا يدل على أن وصول خالد إلى الشام كان أثناء حصار المسلمين دمشق وليس في أثناء معركة اليرموك .

وحيث تبين لنا أن هذه المعركة هي آخر المعارك الكبرى في الشام فهي المعركة الفاصلة حيث لم يبق للروم بعدها قائمة في بلاد الشام ، فقد كان ملك الروم مرابطاً في أنطاكية ينتظر أخبار هذه المعركة ليقرر بعدها مواصلة القتال واستعادة ملك الشام إن كانت المعركة لهم أو الجلاء عن الشام إلى غير رجعة إن كانت عليهم .

(١) سير أعلام النبلاء ١١/١ .

بلوغ هزيمة الروم ملك الروم :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني عبيد الله بن العباس قال : إن الهزيمة لما انتهت إلى ملك الروم ، وهو بأنطاكية ، فكان أول من جاءه رجل من المنهزمة ، فأخبره بهزيمة الروم ، قال : قد كنت أعلم أنهم سيهزمونكم .

قال : فقال له بعض جلسائه : ومن أين علمت ذلك أيها الملك ؟

قال : من حيث أنهم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة ، ويرغبون في الآخرة أشد من رغبتكم في الدنيا ، فلا يزالون ظاهرين ماكانوا هكذا ، وليغيّرَنَّ كما غيّرتم ، ولينقضنَّ كما نقضتم .

وروى بإسناده عن عبد الله بن قرط الشمالي قال : فإنه - يعني ملك الروم - لكذلك إذ جاءه رجل عظيم من عظماء الروم ، فقال له الملك : ماوراءك؟ قال الشرُّ هُزُمنَّا .

قال : فما فعل أميركم باهان؟ قال : قُتِل ، قال : فلان وفلان وفلان ، فسمى له عددًا من أمرائه وبطارقته وفرسان الروم ، قال : قتلوا .

فقال له : ولكنك أنت والله أخبث والأُم وأكثر من أن تذبَّ عن دين أو تقاتل عن دنيا .

ثم قال لشرطه : أنزلوه ، فأنزلوه ، فجاءوا به ، فقال له : ألسنت أنت كنت أشد الناس عليّ في أمر محمد نبيّ العرب حين جاءني كتابه ورسوله؟ وكنتُ قد أردت أن أجيبه إلى ما دعاني إليه ، وأدخل في دينه ، فكنتَ أنت من أشد الناس علي حتى تركت ماكنت أريد من

ذلك ، فهلاً قاتلتَ الآن قوم محمد وأصحابه دون سلطاني ، وعلى قدر ماكنتُ لقيتُ منك إذ منعني من الدخول في دينه ؟ اضربوا عنقه ، فقدموه ، فضربوا عنقه .

ثم نادى في أصحابه بالرحيل إلى القسطنطينية راجعاً ، فلما خرج من أرض الشام وأشرف على أرض الروم استقبل الشام بوجهه فقال : السلام عليك يا سورية ، سلام مودّع ، لا يرى أنه يرجع إليك أبداً .
ثم أقبل على أرضه ، فنظر إليها وقال : ويحك أرضاً ، ما أنفعك لعدوك لكثرة ما فيك من العشب والخصب والخير (١) .

وهكذا كان هرقل مصدقاً بالإسلام بقلبه ويعلم أن رسول الله ﷺ هو النبي الذي بشر به أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ، منذ وصل إليه كتاب النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام ، وسأل عنه أبا سفيان وصحبه ، وقد جمع عظماء الروم آنذاك ودعاهم إلى الإسلام فأبوا جميعاً إباءً شديداً فأظهر لهم أنه إنما أراد أن يختبر دينهم كما تقدم .

لقد كان هرقل يريد أن يدخل في الإسلام هو وقومه ويبقى على ملكه ، فلما كان الخيار بين الإسلام والملك اختار الملك ولم يسلم .

وكان موقفاً بانتصار المسلمين في كل حروبهم مع الروم ، ولكنه كان مضطراً لبعث الجيوش لقتالهم لأنه لم يكن يتصرف بإرادته وإنما كان يتصرف بإرادة زعماء دولته .

وقد ظهر غضبه - في هذا الخبر - من ذلك الزعيم الرومي الذي جاءه بخبر الهزيمة ، حيث تذكر أنه كان من أشد الذين وقفوا في

(١) فتوح الشام / ٢٣٤ - ٢٣٦ .

وجهه حين دعاهم للإسلام، فقتله بسبب ذلك مع عدم ثباته في الدفاع عن دينه الذي أظهر تصلُّبه في اتباعه .

رسالتان بين أبي عبيدة وعمر :

قال أبو إسماعيل الأزدي : وكتب - يعني أبا عبيدة - إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حين أظهره الله على أهل اليرموك ، وخرج يطلبهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين ، من أبي عبيدة ابن الجراح ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فالحمد لله الذي أهلك المشركين ونصر المسلمين ، وقديما ماتولى الله أمرهم ، وأظهر فلجهم ، وأعز دعوتهم ، فتبارك الله رب العالمين ، أخبر أمير المؤمنين ، أكرمه الله أنا لقينا الروم ، وهم في جموع لم تلق العرب مثلها جموعاً قط ، فأتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً ، ماقتل المسلمون مثله في موطن قط ، ورزق الله المسلمين الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، فقتلهم الله في كل قرية وكل شعب ، وكل واد وجبل وسهل ، وغنم المسلمون عسكرهم ، وماكان فيه من أموالهم ومتاعهم ، ثم إنني أتبعتهم بالمسلمين حتى بلغت أقاصي بلاد الشام ، وقد بعثت إلى أهل الشام عُمالي ، وقد بعثت إلى أهل إيلياء ، أدعوهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا وإلا فليؤدوا إلينا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم ، ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين ، إن شاء الله ، والسلام عليك .

فكتب إليه أمير المؤمنين عمر :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاني كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه من إهلاك الله المشركين ، ونصره المؤمنين ، وما صنع الله لأوليائه وأهل طاعته ، فأحمد الله على حسن صنيعه إلينا ، وأسئتم الله ذلك بشكره^(١) ، ثم اعلّموا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعدد ولا عدّة ، ولا حول ولا قوة ، ولكنه بعون الله ونصره ومَنّه ، وفضله ، فله الطّولُ والمنُّ والفضل العظيم ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام^(٢) .

مواقف بطولية لبعض المسلمين :

في هذا العنوان أذكر مواقف بطولية لبعض المجاهدين مما لم يرد له ذكر أثناء الكلام على المعركة :

١- فمن ذلك موقف لعكرمة بن أبي جهل فقد قال ذلك اليوم : قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن وأفر منكم اليوم ! ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قدّام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتلوا إلا من برأ^(٣) .

قال ابن كثير : وقد ذكر الواقدي وغيره أنهم لما صرعوا من

(١) أي اطلب تمام ذلك من الله تعالى بشكره .

(٢) فتوح الشام / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٣) تاريخ الطبري ٤٠١ / ٣ .

الجراح استسقوا ماء فجيء إليهم بشربة ماء فلما قُرِبَتْ إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه ، فلما دُفِعَتْ إليه نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه ، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً ولم يشربها أحد منهم رضي الله عنهم أجمعين (١) .

وقد مات عكرمة بعدما أبلى بلاء عظيمًا سواء في هذه المعركة أو ما سبقها من المعارك منذ أن دخل في الإسلام رضي الله عنه

٢- وكان لأبي سفيان دور كبير في تثبيت المسلمين وإثارة حماسهم وكان لكبر سنه لا يقاتل ولكنه يدور على المسلمين ويشبّتهم حتى مرَّ على ابنه يزيد فقال له : يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفًا بقتال ، فكيف بك وبأشباهك الذين وكّوا أمور المسلمين ؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة ، فاتق الله يا بني ولا يكوننَّ أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجراً على عدو الإسلام منك . فقال : أفعل إن شاء الله ، فقاتل يومئذ يزيد قتالا شديداً .

وعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول : يانصر الله اقترب ، الثبات الثبات يامعشر المسلمين ، قال : فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد (٢) .

٣- وأخرج الأزدي من خبر سهل بن سعد قال : وأقبل يومئذ

(١) البداية والنهاية ١٢/٧ .

(٢) فتوح الشام / ٢٢٨ ، البداية والنهاية ١٤/٧ ، تاريخ دمشق ١٥٧ ، ١٥٥/٢ .

عمرو بن الطُّفيل بن ذي النور وهو يقول : يامعشر الأزد ، لا يؤتَيْنَ المسلمون من قبلكم ، وأخذ يضرب بسيفه متقدماً عليهم ، وقاتل قتالا شديداً ، وقتل من أشدائهم تسعة ، ثم قتل رحمه الله .

ونادى أبو هريرة ، يامبرور ، يامبرور ، فأطافت به الأزد (١) .

٤- أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الأعلى بن سُرَاقَة قال : انتهيت إلى أبي هريرة يومئذ وهو يقول : تزينوا للحدود العين ، وارغبوا في جوار ربكم في جنات النعيم ، فما أنتم إلى ربكم في موطن من موطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن ، ألا وإن للصابرين فضلهم .

قال : وأطافت به الأزد ، ثم اضطربوا هم والروم ، فوالذي لا إله إلا هو لرأينا الروم وإنها لتدور بهم الأرض وهم في مجال واحد كما تدور الرحا ، فما برحوا ولا زالوا ، وركبهم من الروم أمثال الجبال ، فما رأيت موطناً قط أكثر قحفاً ساقطاً (٢) ، أو معصماً نادراً ، أو كفاً طائحة من ذلك الموطن ، وقد والله أوحلناهم شراً وأوحلونا (٣) .

٥- أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر حنظلة بن جُويّة قال : والله إنني لفي الميسرة إذ مرّ بنا رجال من الروم على خيل العرب ، لا يشبهون الروم وهم أشبه شيء بنا ، فما أنسى قول قاتل منهم : يامعشر العرب الحقوا بوادي القرى ويثرب ، وهو

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٤ .

(٢) القحف العظيم الذي فوق الدماغ .

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٤ - ٢٢٥ ، تاريخ دمشق ١٥٣/٢ .

يقول :

فِي كُلِّ حِينٍ فَتَّةٌ تُغَيِّرُ نَحْنُ لَنَا الْبُلْقَاءُ وَالسَّدِيرُ
هَيْهَاتَ يَا أَبَى ذَلِكَ الْأَمِيرُ وَالْمَلِكُ الْمُتَوَجُّ الْمَخْبُورُ

قال : وأحمل عليه ، وحمل عليّ ، واضطربنا بسيفينا ، فلم
يغننا شيئاً .

قال : ثم إنني اعتنقته فخرنا جميعاً ، فاعتركنا ساعة ، ثم إننا
تحتاجنا ساعة .

قال : فنظرت إلى عنقه وقد بدا منه مثل شراك النعل ، فمشيت
إليه ، واعتهدت ذلك الموضع بسيفي ، فوالله ما أخطأته ، فقطعته ،
وصرع ، فضربته حتى قتلتها ، وأقبلت إلى فرسي وقد كان عاراً^(١) وإذا
قومي قد حبسوه عليّ ، فأقبلت حتى ركبته^(٢) .

٦ - قال حنظلة بن جوية في هذه الرواية : وقاتل قباث بن أشيم
يومئذ قتالا شديداً ، وكسر في ذلك اليوم ثلاثة أرماح ، وقطع سيفين ،
وأخذ يقول كلما قطع سيفاً أو كسر رمحاً : من يعين بسيف أو برمح
في سبيل الله رجلاً قد حبس نفسه مع أولياء الله ، وقد عاهد الله
لا يفر ولا يبرح ، يقاتل المشركين حتى يظهر الله المسلمين أو يموت .
وكان من أحسن الناس بلاء يومئذ^(٣) .

(١) أي لم يبق على ظهره شيء .

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٧ .

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٧ - ٢٢٨ ، تاريخ دمشق ١٥٥ / ٢ .

٧- أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر حبيب بن مسلمة قال: وشد على عمرو بن العاص جماعة من الروم، فانكشف عنه أصحابه، وثبت عمرو، فجالدهم طويلاً، وقتلهم قتلاً شديداً، ثم إن أصحابه تراجعوا إليه، فلسمعت أم حبيبة ابنة العاص وإنها لتقول: قبح الله رجلاً يفر عن حليلته، وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته (١).

وهذا موقف يذكر لعمرو بن العاص في الشجاعة والثبات وإن كانت شهرته في الدهاء والسياسة، وكون الرجل يجمع بين الشجاعة والرأي من صفات الكمال في الرجال.

٨- قال حبيب بن مسلمة في هذه الرواية: وقاتل شرحبيل بن حسنة في رُبْعِهِ الذي كان فيه قتلاً شديداً، وكان وسطاً من الناس، إلى جانب سعيد بن زيد، وجعل ينادي، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا﴾ إلى آخر الآية (٢).

ثم يقول: أين الشارون أنفسهم ابتغاء مرضاته أين المشتاقون إلى جوار الله في داره؟

فاجتمع إليه ناس كثير، وبقي القلب لم ينكشف فيه أهله الذين كانوا فيه مع سعيد بن زيد.

وكان أبو عبيدة من وراء ظهور المسلمين ردءاً لهم (٣).

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٩، وانظر تاريخ دمشق ١٥٦/٢.

(٢) سورة التوبة / ١١١.

(٣) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٩، تاريخ دمشق ١٥٦/٢.

٩- قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني أبو عبد الله بن الحسين، أن الأشر^(١) كان من جلداء الرجال ومن أشدائهم وأهل القوة منهم والنجدة . وأنه قتل يوم اليرموك قبل أن ينهزموا أحد عشر رجلا من بطارتهم ، وقتل ثلاثة منهم مبارزة .

وأقبل الأشر مع خالد بن الوليد حين طلب الروم وحين انهزموا، فلما بلغوا ثنية العقاب من أرض دمشق، وهو يهبط الهابط منها من قبل حمص، فيقع في الغوطة، غوطة دمشق، وعلى ثنية العقاب جماعة عظيمة من الروم ، فلما انتهوا إلى تلك الجماعة من الروم يرمون المسلمين من فوقهم ، فتقدم إليهم الأشر في رجال من المسلمين ، وإذا أمام الروم رجل من عظمائهم وأشدائهم، وهو عظيم جسيم، فمضى إليه الأشر فلما دنا منه وثب الأشر ، فاستوى هو والرومي على صخرة مستوية، فاضطربا بسيفيهما، فضرب كف الرومي، فأطار كفه، وضرب الرومي الأشر بسيفه، فلم يضره شيئا، واعتنق كل منهما صاحبه، ثم دافعه الأشر من فوق الصخرة، فوقعا عنها، ثم تدحرجا، فأخذ الأشر يقول وهو في ذلك ملازم العليج لا يتركه وهما يتدحرجان : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢).

فلم يزل يقول ذلك حتى انتهى إلى موضع مستوٍ من الجبل

(١) هو مالك بن الحارث النخعي .

(٢) الأنعام / ١٦٢ - ١٦٣ .

وقرار، فلما استقرا جميعاً وثب الأشر على الرومي، فقتله، ثم صاح في الناس : أن جوزوا ، فجاز الناس .

فلما رأت الروم ذلك ، وأن صاحبهم قد قتله الأشر خلوا سبيل العقبة للناس ، ثم انهزموا (١) .

وهكذا استطاع الأشر أن يفتح الطريق للمسلمين بقتل عظيم الروم الذي كانوا يتقون به ، وهو مثل من أمثلة الشجاعة الفذة والإقدام المندفع ، حيث ينسى المغامر نفسه وحياته في سبيل خدمة المثل العليا التي يؤمن بها .

١٠- أما نساء المسلمين فكان لهن عمل مهم أثناء القتال حيث قمن بتأنيب المتراجعين إلى الوراء وتثبيتهم ، فإنهم لما انكشف بعض المسلمين من الميمنة والميسرة استقبلتهم النساء ومعهن عمد الخيام والحجارة حتى رددنهم إلى المعسكر .

وصاحت نسوة من المسلمين يقلن : قاتلوا أيها المسلمون فلستم بيعولتنا إن لم تمنعونا، فكان لذلك أثر في تراجع المنكشفين إلى مواقعهم .

وكان لبعضهن مشاركة في قتال من اقترب منهن من الكفار (٢) .

كما جاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله حينما سئل عن جهاد النساء قال: كن يشهدن مع رسول الله ﷺ فيداوين الجرحى ويسقين المقاتلة ، ولم أسمع معه بامرأة قتلت ، وقد قاتلن نساء قريش يوم

(١) فتوح الشام / ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥٨/٢ .

(٢) فتوح الشام للأزدي / ٢٢٩ ، البداية والنهاية ١١/٧ ، تاريخ دمشق ١٥٤/٢ .

اليرموك حين رهبهم جموع الروم حتى خالطوا عسكر المسلمين ،
فضرب النساء يومئذ بالسيوف في خلافة عمر رضي الله عنه (١) .

هذا إضافة إلى مهمتهن المعروفة دائماً من سقي الجرحى وتضميد
جراحهم .

فهذه المواقف وأمثالها مما مر علينا في الكلام على هذه المعركة
تبين لنا عظمة المسلمين وتفوقهم في الحياة الجهادية لأنهم جعلوا الجهاد
هو قضيتهم الكبرى ، فبرعوا فيه وفاقوا أبطال الأمم الذين يُعدُّ الواحد
منهم عن ألف مقاتل ، حتى أصبح الرعب منهم يسبقهم في كل
موطن فيزلزل أقدام أعدائهم ، ويهيئهم للهزيمة والفشل .

وإن ما قامت به النساء المؤمنات من تثبيت المجاهدين وتقريع
المنهزمين يعتبر جهداً عالياً كان له دور جيد في تماسك المؤمنين
وثباتهم .

وإن ما قامت به بعضهن من المشاركة في القتال دفاعاً عن أنفسهن
يعتبر تضحية عالية وإسهاماً جيداً في تخفيف العبء عن الرجال .

ولقد أدرك الأعداء الذين اخترقوا صفوف المؤمنين أنه ليس من
السهل الاستيلاء على نساء المسلمين لأن كل واحدة منهن تُفضِّل أن
تُقتل عن أن تقع أسيرة بيد الأعداء .

* * *

(١) مصنف عبد الرزاق ٢٩٨/٥ ، رقم ٩٦٧٣ .

مواقف وعبد
فى فتوحات الشام
(ما بعد اليرموك)

عاد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بعد «اليرموك» إلى توزيع الجيوش الإسلامية في الشام حسب توجيه أبي بكر رضي الله عنه، فأمر على دمشق يزيد بن أبي سفيان وأمره بأن يستكمل فتح القرى التابعة لها، وأمر على الأردن شرحبيل بن حسنة وأمره بفتح القرى التابعة له، وأمر على فلسطين عمرو بن العاص وأمره أن يفتح بيت المقدس وسائر قراها، وسار هو إلى حمص وبرفقتة خالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين .

وقد قام يزيد بن أبي سفيان بفتح بيروت وصيدا وبعض قرى الساحل وكان على مقدمته أخوه معاوية، وقد تولى معاوية فتح بعض القرى والحصون بتوجيه من أخيه يزيد (١) .

* * *

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٧٣ .

١ - فتح قنسرين -

كان شمال الشام تابعاً لمدينة حمص حسب تقسيم الصحابة رضي الله عنهم في تقسيم الشام على أمراء الجهاد .

وقد ذكر الإمام الطبري في رواية له أن أبا عبيدة وجّه خالد بن الوليد رضي الله عنهما لفتح قنسرين ، فلقى حولها جمعاً من الروم والعرب بقيادة « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل ، فقتل ميناس ومن معه مقتلة لم يقتلوا مثلها ، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد ، وأما العرب فأرسلوا إلى خالد يخبرونه بأنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم .

وسار خالد إلى قنسرين فتحصنوا منه فقال : إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا .

وهذه كلمة عظيمة تدل على ثقته البالغة بنصر الله تعالى كما أنها تحمل في طياتها إظهار عز الإسلام وتمكن دولته وسلطانه .

قال : فنظروا في أمرهم وذكروا مالقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص ، فأبى إلا على إخراج المدينة فأخربها (١) .

قال : ولما بلغ عمر ذلك قال : أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني ، وقد كان عزله هو والمثنى مع قيامه - يعني بأمر الخلافة - وقال : إنني لم أعزلهما عن ربيعة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يוכלوا إليهما (٢) .

(١) يعني أخرب حصونها الحربية .

(٢) تاريخ الطبري ٦٠١/٣ .

هكذا ذكر هذا القول بعد « قنسرين » ولم يكن خالد في هذه المعركة قد أمّر نفسه وإنما ولاه أبو عبيدة ، ولم يظهر منه عمل كبير يلفت النظر بالنسبة إلى أعماله الحربية السابقة ، وإنما أمّر نفسه في معركة « اليرموك » كما سبق حيث قال لأبي عبيدة « ولّني ما وراء بابك فأنا أكفيك بإذن الله أمر هذا العدو » ، وقد ظهر منه من البراعة في القيادة والقوة في تحمل المسئولية وبذل الطاقة العظيمة في معركة اليرموك ما يبهّر الأبصار ويستجيش البصائر .

فإذا ثبت أن عمر رضي الله عنه قال هذا القول عقب معركة قنسرين فإنما يريد بالدرجة الأولى ما قام به في اليرموك لقرب الزمن بين المعركتين وانطباق كلامه على ماجرى من خالد في اليرموك .

وإن هذا الثناء البالغ من عمر على خالد ليدلنا على عظمة شخصية عمر وتجرده الواضح من حظ النفس ، فقد سبق له أن عزل خالدًا وهو في أوج عزّه ، كما تبدى له من المصلحة العامة في ذلك آنذاك ، وتحمل ما قد يواجهه من لوم الناس في ذلك ، فكان الوضع المعروف لدى أكثرية الناس في هذا المجال أن يغض الطرف عن محاسن من كان له رأي فيه يخالف الأغلبية إن لم يُغطَّ على محاسنه ويحولها إلى مساوئ كما يفعل بعض الناس ، أما عمر الرجل العظيم الذي يهين نفسه من أجل أن تسود المكارم والمعالي فإنه لم يهضم أبا سليمان حقه وحاشاه أن يفعل ذلك .

* * *

٢ - فتح حلب وأنطاكية -

ذكر البلاذري في رواية له أن أبا عبيدة رحل إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم، فوجد أهلها قد تحصنوا، فنزل عليها، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، فأعطوا ذلك، فاستثنى عليهم موضع المسجد، وكان الذي صالحهم عليه عياض، فأنفذ أبو عبيدة صلحه .

وسار أبو عبيدة إلى أنطاكية وقد تحصن بها خلق من أهل جند قنسرين، فلما صار بقرية مهروبة وهي على فرسخين من مدينة أنطاكية لقيه جمع للعدو ففضّهم وأجأهم إلى المدينة، وحاصر أهلها من جميع جوانبها ثم إنهم صالحوه على الجزية والجلاء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم (١) .

وهكذا تم فتح هتين المدينتين بهذه السرعة نظراً لقوة المسلمين، واعتباراً بما حصل لمدينتي دمشق وحمص، وبهذا نعلم ضرورة وجود دولة الإسلام القوية في كل زمن لأن وجودها يُخضع أعداءها لها بسلاح الرعب من غير أن يكون قتال، وهذا يوفر قوة جيش المسلمين لاستخدامها عند الحاجة .



(١) فتوح البلدان / ١٩٩ - ٢٠٠ .

٣ - فتح اللاذقية -

أخرج البلاذري بإسناده عن مشايخ من أهل حمص قالوا: استخلف أبو عبيدة عبادة بن الصامت الأنصاري على حمص ، فأتى (١) اللاذقية فقاتله أهلها ، فكان بها باب عظيم لا يفتحه إلا جماعة من الناس ، فلما رأى صعوبة مُرامها عسكر على بُعد من المدينة ، ثم أمر أن تُحفر حفائر كالأسراب يستتر الرجل وفرسه في الواحدة منها ، فاجتهد المسلمون في حفرها حتى فرغوا منها ، ثم إنهم أظهروا القفول إلى حمص ، فلما جنَّ عليهم الليل عادوا إلى معسكرهم وحفائِرتهم ، وأهل اللاذقية غارُّون ، يرون أنهم قد انصرفوا عنهم ، فلما أصبحوا فتحوا بابهم وأخرجوا سرحهم ، فلم يرَهم إلا تصبيح المسلمين إياهم ودخلهم من باب المدينة ، ففتحت عنوة ، ودخل عبادة الحصن ثم علا حائطه فكبر عليه ، وهرب قوم من نصارى اللاذقية إلى «الْيُسَيْد» ثم طلبوا الأمان على أن يتراجعوا إلى أرضهم ، فقوطعوا على خراج يؤدونه قَلُّوا أو كثروا ، وتُركت لهم كنيستهم ، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً بأمر عبادة ، ثم إنه وسَّع بعدُ (٢) .

هذا وإن في هذا الخبر موقفاً حربياً يذكر لعبادة رضي الله عنه ، وفيه لون جديد من ألوان التخطيط الحربي القائم على المكر بالأعداء باجتلاب شعورهم بالأمن ثم اغتنام غفلتهم والإيقاع بهم ، والمسلمون في حروبهم يحبون المبارزة بالحرب التي يتواجه فيها الأقران وتبرز فيها

(١) يعني عبادة بن الصامت .

(٢) فتوح البلدان / ١٨٠ - ١٨١ .

شجاعة الشجعان ، ولكن حينما يتحصن منهم الأعداء بالأسوار
والأبواب المحكمة فإنهم يلجئون إلى استعمال الحيل وتصيدُ غفلات
الأعداء حتى يهتكوا حصونهم ويقابلوهم وجهًا لوجه ، وقلَّما يصمد
لهم أعداؤهم .

* * *

٤ - فتح قيسارية (١) -

ظلت قيسارية ممتنعة من المسلمين نحوًا من سبع سنين، وكان عمرو بن العاص يحاصرها ثم يتركها لينضم إلى جيوش المسلمين في معاركهم الكبرى .

وحينما ولى أمير المؤمنين عمر معاوية على جزء من الشام أمره بالمسير إليها، وجاء في كتابه له : أما بعد فإنني قد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، الله ربنا ورباؤنا ومولانا ، نعم المولى ونعم النصير .

فسار معاوية إليها في سبعة عشر ألف من الجنود وعلى قيسارية أمير يسمى « أبني » ، فخرجوا إلى جيش معاوية فقاتلوه فهزمهم عدة مرات، ثم إنهم خرجوا بجمع كبير فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فانهزموا وقُتل منهم في المعركة ثمانون ألفًا وعشرون ألفًا في حال هزيمتهم .

وكان فتحها في العام التاسع عشر للهجرة .

وجعل معاوية يحبس الأسرى عنده ويقول : ما صنع ميخائيل بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله، ففطمه عن العبث بأسرى المسلمين حتى افتتحها .

ووجه معاوية بالفتح إلى أمير المؤمنين عمر مع رجلين من « جذام » ثم خاف ضعفهما عن المسير فوجه رجلاً من خثعم ، فكان الخثعمي يُجهد نفسه في السير والسرى وهو يقول :

(١) مدينة في فلسطين على ساحل البحر بين حيفا ويافا .

أَرْقَ عَيْنِي أَخَوَا جِذَامٍ أَخِي جُشَمٌ وَأَخُو حَرَامٍ
كَيْفَ أَنَامُ وَهُمَا أَمَامِي إِذْ يَرْحَلَانِ وَالْهَجِيرُ طَامِي
فَسَبَقَهُمَا وَدَخَلَ عَلَى عَمْرٍ فَكَبَّرَ عَمْرٌ وَكَبِرَ الْمُسْلِمُونَ (١) .

وهكذا تم فتح هذه البلدة التي استعصت على المسلمين عدة سنوات لمناعة أسوارها ، ولأن الروم وضعوا ثقلهم فيها حينما أفلت الشام من أيديهم ، وقد لجأ إليها كثير ممن فر من معارك المسلمين مع الروم في الشام .

وإن كثافة عدد القتلى ليدلنا على كثرة من كان فيها من المحاربين .
ولقد كان فتح هذه البلدة من مآثر معاوية رضي الله عنه ، كما أننا نلمح في هذا الخبر مثلين مما كان يتصف به معاوية من الحزم والدهاء : الأول في حبس أسرى الأعداء عنده حتى يضمن سلامة أسرى المسلمين ، والثاني في إرساله رسولا ثالثا يخبر بالفتح وعدم اكتفائه بالرسولين السابقين وإشعار الأخير بذلك مما جعله ينافس الرسولين السابقين ويصل قبلهما .

* * *

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ١٩١ - ١٩٤ ، تاريخ الطبري ٦٠٤ / ٣ باختصار .

٥ - فتح بيت المقدس -

وَجَدَ عمرو بن العاص نفسه بين قوتين، قوة ترابط داخل بيت المقدس، وقوة قد تحصنت بأجنادين، وذلك كله تحت قيادة «الأرطوبون» وكان أدهى الروم وأبعدها غورا، وأنكاها فعلا، وقد رابط بأجنادين، وبعث عمرو جيشا لحصار بيت المقدس بقيادة علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي، وبعث أبا أيوب المالكي إلى الرملة وكان بها جيش تابع للأرطوبون، ولما أمن عمرو على جيشه من هذه القوات توجه إلى القوة الكبرى في أجنادين .

ذكر ذلك ابن جرير الطبري رحمه الله ثم قال : وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطوبون على سقطة، ولا تشفيه الرسل، فوليه بنفسه، فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه، وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد .

وقال أرطوبون في نفسه : والله إن هذا لعمرو أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله، ثم دعا حرسيا فسارَه بقتله، فقال: اخرج فقم مكان كذا وكذا، فإذا مر بك فاقتله، وفطن له عمرو، فقال: قد سمعت مني وسمعت منك، فأما ما قتلته فقد وقع مني موقعا، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاته ويُسْهِدنا أموره، فأرجع فأتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضتَ مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمَنهم، وكنت على رأس أمرك، فقال: نعم .

ودعا رجلاً فسارّه، وقال: اذهب إلى فلان فردّه إليّ، فرجع إليه الرجل، وقال لعمرو: انطلق فجيء بأصحابك، فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها، وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال: خدعني الرجل، هذا أدهى الخلق، فبلغت عمر فقال: غلبه عمرو، لله عمرو (١).

لقد كان عمر بن الخطاب قال حينما علم بمواجهة عمرو بن العاص لأرطوبون الروم: قد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب فانظروا عمّ تنفرج. وقد انفرجت عن استخدام ذكي من عمرو لما وهبه الله من الدهاء، عرف به مداخل العدو ومخارجه ومواطن قوته وضعفه.

وكان أرطوبون الروم من الدهاء بحيث عرف أن عمراً وقد جاء على هيئة رسول ليس رجلاً عادياً بل هو رجل يحمل همّاً كبيراً وقد هيمن على نفسه فجعله يستعمل كل طاقته في التعرف على المواقع والرجال والسلاح وكل ما يتعلق بالحرب ولم يكن مجرد رسول لقائد الجيش يؤدّي الرسالة وهو غافل عن استكشاف قوة العدو وخفائيه.

وكان عمرو بارعاً في دهائه حينما أدرك ماأراد به الأرطوبون من قراءة ذلك في وجهه وماقام به من تصرف يوحي بإرادة الغدر به، فابتكر بسرعة هذه الحيلة التي استطاع بها أن يتخلص منه، ولاشك أن عمراً كان أدهى منه، لأن أرطوبون الروم لم يستطع إخفاء ماأراد في ضميره بل ظهر ذلك على وجهه حتى أدرك ذلك عمرو، بينما استطاع عمرو أن يعرض خدعته ببساطة وكان أملك لأعصابه مع أنه كان في

(١) تاريخ الطبري ٦٠٥/٣.

مقام الخوف، ومن المعلوم أن الخوف يظهر في آثار منها اصفرار الوجه وتلعثم اللسان، لكن عمرًا لم يبد على وجهه أيُّ تغيير ولم يفقد شيئًا من رباطة الجأش وفصاحة اللسان، حتى خفي أمره تمامًا على أرطوبون الروم، وطمع في إفناء عشرة من مفكري المسلمين بدلا من واحد .

ألا ما أحوج المسلمين اليوم إلى ممثلين لهم بذكاء عمرو ودهائه، خاصة وأن معركة المسلمين مع أعدائهم أصبحت في هذا الزمن تعتمد في أكثر مراحلها على التفوق الفكري، ولطالما استفاد القادة المسلمون من العباقرة في تذليل الصعوبات وحل المشكلات وإخضاع الأعداء للخطط التي يريدونها، ولطالما جنبوا أهمهم تضحيات كبيرة في الأنفس والأموال بسلوك الخطط التي يرسمها العباقرة وتوجيه أذكيائهم ووجهائهم للتفاوض مع الأعداء .

أما عمرو بن العاص فإنه وقد أفلت من قبضة الأرطوبون قد استفاد من رؤية معسكر الأعداء ، فأصبح أجراً على حربهم وقد عرف مكانهم ضعفهم وقوتهم فالتقوا اللقاء الأخير الذي انهزم به الأعداء، وقد لجأ الأرطوبون مع من بقي من جيشه إلى القدس ، واستطاع دخولها والتحصن بها .

أبو عبيدة إلى القدس :

بعد أن أكمل أبو عبيدة تطهير شمال الشام بمساعدة خالد بن الوليد توجه بجيشه إلى القدس التي استعصى فتحها على عمرو بن العاص .

قال محمد بن عبد الله الأزدي في رواية له : فنأدى بالرحيل إلى

إيلياء ، وقدّم خالد بن الوليد على مقدمته بين يديه ، وأقبل يسير حتى انتهى إلى حمص ، فبعث على حمص حبيب بن مسَلَمَة القرشي ، وأرض قنسرين إذ ذاك مجموعة إلى صاحب حمص ، وإنما سميت حمص الجند المقدّم ، لأنها كانت أَدْنَاهَا من الروم ومن دمشق ومن الأردن وفلسطين ، وهن كلهن وراءها .

ثم خرج من حمص ومن دمشق ، فولأها سعيد بن زيد بن عمرو ابن نُفَيْل ، ثم خرج حتى مرَّ بالأردن ، فنزلها ، فعسكر بها ، وبعث إلى أهل إيلياء الرسل ، وقال : اخرجوا إليّ أكتب لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم ، ونَفِّ لكم كما وفينا لغيركم . فتثاقلوا وأبَوْا . قال : فكتب أبو عبيدة إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله العظيم ورسوله ، أما بعد ، فإننا ندعوكم إلى شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، فإذا شهدتم بذلك حرمت علينا دماءكم وأموالكم ، وكنتم إخواننا في ديننا ، وإن أبيتم فأقرُّوا لنا باعطاء الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حبا للموت منكم للحياة ولشرب الخمر وأكل الخنزير ، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلتكم ، وأسبي ذراريكم (١) .

وهذا كتاب قوي شرح فيه أبو عبيدة دعوة الإسلام ، ودعا أهل

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٢ - ٢٤٣ .

بيت المقدس إلى الدخول فيه بالترغيب أولاً ثم بالترهيب ثانياً ، وليس أعظم في الترغيب من أن يكونوا إخواناً للمسلمين إذا أسلموا ، لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، وليس أبلغ في الترهيب من التهديد بالغزو برجال هم أحب للموت من أعدائهم للحياة !

قال : ثم إن أبا عبيدة انتظر أهل إيلياء ، فأبوا أن يأتوه ولا يصالحوه ، فأقبل إليهم حتى نزل بهم ، فحاصرهم حصاراً شديداً ، وضيق عليهم من كل جانب ، فخرجوا إليه ذات يوم ، فقاتلوا المسلمين ساعة ، ثم إن المسلمين شدوا عليهم من كل جانب ، فقاتلهم ساعة ، ثم انهزموا فدخلوا حصنهم ، فكان الذي ولى قتالهم خالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان ، كل واحد منهما في جانب .

فبلغ ذلك سعيد بن زيد وهو على دمشق ، فكتب إلى أبي عبيدة ، رضي الله عنه ورحمه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فلعمري ما كنت لأوثر وأصحابك بالجهاد في سبيل الله على نفسي ، وعلى ما يقربني من مرضاة ربي عز وجل ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلى عمك من هو أرغب فيه مني ، فليعمل لك عليه ما بدا لك ، فإني قادم عليك وشيكاً ، إن شاء الله ، والسلام .

قال : فلما وصل كتابه إلى أبي عبيدة قال ، أشهد ليفعلتها .

فقال ليزيد بن أبي سفيان : اكفني دمشق ، فوجهه إليها ، فسار يزيد إليها ، فولياها (١) .

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٤ - ٢٤٦ .

قال : فلما حضر أبو عبيدة أهل إيلياء ورأوا أنه غير مقلع عنهم وظنوا أنه لاطاقة لهم بحربه قالوا له : نحن نصلحك قال : فإني أقبل منكم الصلح .

قالوا : فأرسل إلى خليفتم عمر ، فيكون هو الذي يعطينا العهد ، وهو يصلحنا ، ويكتب لنا الأمان (١) .

فقبل ذلك أبو عبيدة منهم ، وهم بالكتاب ، وكان أبو عبيدة قد بعث معاذ بن جبل على الأردن ، وكان معاذ لا يفارق أبا عبيدة لرغبته في الجهاد ، وكان أبو عبيدة لا يكاد يقطع أمراً دون رأي معاذ ، فأرسل إلى معاذ . فلما قدم عليه أخبره بما سأله القوم .

فقال له معاذ : تكتب إلى أمير المؤمنين ، وتسأله القدوم عليك فلعله يقدم عليك ، ثم يأبى هؤلاء الصلح ، فيكون مسيره عناء وفضلاً ، فلا تكتب له حتى توثق هؤلاء وتستحلفهم بأيمانهم المغلظة ، لئن أنت سألت أمير المؤمنين القدوم عليهم ، وكتبت إليه بذلك فقدم عليهم ، فأعطاهم الأمان ، وكتب لهم كتاباً على الصلح ليقبلن ذلك ويصلحوا عليه .

فأخذ عليهم أبو عبيدة الأيمان المغلظة ، فحلفوا بأيمانهم ، لئن عمر أمير المؤمنين قدم عليهم ، ونزل بهم ، فأعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ، وكتب على ذلك كتاباً ليقبلن ذلك وليؤدن الجزية ، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الشام .

(١) وإنما طلبوا ذلك لأن في كتبهم المقدسة أن الذي يفتح بيت المقدس هو عمر ، وقد ذكر باسمه وصفاته كما سيأتي ما يفيد ذلك .

فلما فعلوا ذلك كتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإننا أقمنا على إيلياء ، وظنوا أن لهم في المطاولة بهم فرجا ورجاء ، فم يزدحم الله بها إلا ضيقاً ونقصاً وهزلاً وأزلاً ، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ماكانوا به ممتنعين قبل ذلك وله كارهين ، وأنهم سألوا الصلح على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين ، فيكون هو المؤمن لهم والكااتب لهم كتاباً ، وإنا خشينا أن يقدم أمير المؤمنين ، ثم يغدر القوم فيرجعون ، فيكون سيرك - أصلحك الله - عناء وفضلاً ، فأخذنا عليهم الموائيق المغلظة بأيمانهم ، لئن أنت قدمت عليهم ، فأمّنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلن ذلك ، وليؤدّن الجزية ، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة ، ففعلوا وأخذنا عليهم الأيمان بذلك ، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا فافعل ، فإن في سيرك أجراً وسلاماً ، وعافية للمسلمين ، أراك الله مرشدك ، ويسر أمرك ، والسلام عليك .

فلما أتى عمر ، رضي الله عنه كتابه جمع رؤوس المسلمين إليه ، فقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة إليه ، واستشارهم بالذي كتب إليه أبو عبيدة .

فقال له عثمان بن عفان : أصلحك الله ، إن الله قد أذلهم وحصرهم وضيق عليهم ، وأراهم ما صنع بجموعهم وملوكهم ، وقتل من صناديدهم ، وفتح على المسلمين بلادهم ، فهم في كل يوم يزدادون

هزلاً وأزلاً - قال: والأزل شدة العيش - وذلاً ونقصاً، وضيقاً ورغماً، فإن أنت أقيمت ولم تسر إليهم علموا أنك بهم وبأمرهم مستخفّ، وبشأنهم محتقر وغير معظم، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى ينزلوا على الحكم أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا حاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم حتى يعطوا بأيديهم .

فقال عمر : ماذا ترون ؟ هل عند أحد منكم غير هذا الرأي ؟

فقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : نعم ياأمير المؤمنين، عندي غير هذا، فقال : فما هو ؟

قال : إنهم ياأمير المؤمنين قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذل والصغار، وهي على المسلمين فتح ولهم عزّ، وهم يعطونكها الآن في العاجل في عافية، ليس بينك وبين ذلك إلا أن تقدم عليهم، ولك ياأمير المؤمنين في القُدوم عليهم الأجر في كل ظمأ وكل مَخْمَصَة (١)، وفي قطع كل وادٍ وكل فج وشعب، وفي كل نفقة تنفقها حتى تقدم عليهم، فإن قدمت عليهم كان قدومك الأمن والعافية، والصلح والفتح، ولست تأمن لو أنهم يؤسوا من قبولك الصلح ومن قدومك عليهم أن يتمسكوا بحصونهم، ولعلمهم أن يأتيهم من عدونا منهم مدد لهم، فيدخلوا معهم في حصونهم، فيدخل على المسلمين من حربهم وجهادهم بلاء ومشقة، ويطول بهم الحصار، ويقيم المسلمون عليهم، فيصيب المسلمين من الجهد والجوع نحو ما يصيبهم، ولعل المسلمين يدنون من حصونهم، فيرمونهم بالنشاب، أو يقذفونهم بالحجارة،

(١) كل عطش وكل جوع .

فإن قُتل أحد من المسلمين تمنيتم أنكم اقتديتم رجلاً من المسلمين بمسيركم إلى مقطع التراب، ولكان المسلم بذلك من إخوانه أهلاً .

فقال عمر - رضي الله عنه - قد أحسن عثمان في مكيدة العدو، وقد أحسن عليّ النظر لأهل الإسلام .

ثم قال : سيروا على اسم الله ، فإنني معسكر وسائر، وخرج الناس معه ، أشراف الناس، وبيوتات العرب، والمهاجرون والأنصار، وأخرج عمر معه العباس بن عبد المطلب (١) .

هذا وإن هذه المحاورة لتدلنا على تفوق الصحابة رضي الله عنهم - وخاصة أمير المؤمنين عمر - في الاستفادة من الشورى التي أمر الله تعالى بها وأمر بها رسوله ﷺ وطبقها في حياته، ولقد درأ الله عنهم ضروراً كثيرة وحقق لهم خيراً كثيراً بسبب استقامتهم على الأخذ بالشورى .

وهذه المحاورة تدلنا على أن العقل البشري لا يحيط بالأمور من كل جوانبها غالباً، بل يغلب على فكر أحد المستشارين أمر بينما يغلب على فكر غيره أمور أخرى، ولقد أوجز عمر رضي الله عنه اختلاف وجهة النظر بين عثمان وعلي رضي الله عنهما بكلمات معدودة حيث قال : « قد أحسن عثمان في مكيدة العدو، وقد أحسن عليّ النظر لأهل الإسلام » وفي هذا الكلام ثناء على الرجلين وتقدير لهما، ثم أخذ برأي علي لأنه رآه أرفق بالمسلمين .

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٤٧ - ٢٥٠ .

وصول أمير المؤمنين عمر إلى الشام :

ووصل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى الشام .

يقول الأزدي في سياق روايته : ثم خرج من الجابية إلى إيلياء ، فخرج إليه المسلمون يستقبلونه . . . فأقبلوا يتدرونه ، فقال للمسلمين : مكانكم .

ثم نزل عمر رضي الله عنه عن بعيره فأخذ زمام جملة ، وزمامه من ليف ، ثم دخل الماء بين يدي جملة حتى جاز الماء إلى أصحاب أبي عبيدة فإذا معهم برذون يُجنَّبونه ، فقالوا يا أمير المؤمنين ، اركب هذا البرذون ، فإنه أجمل بك وأهون عليك في ركوبك ، ولانحب أن يراك أهل الذمة في مثل هذه الهيئة التي نراك فيها ، واسقبلوه بثياب بيض .

فتزل عمر رضي الله عنه عن جملة ، وركب البرذون وترك الثياب .

فلما هملج به البرذون نزل عنه ، وقال خذوا هذا مني ، فإن هذا شيطان وأخاف أن يغيّر عليّ قلبي .

قالوا : يا أمير المؤمنين ، فلو لبست هذه الثياب البيض ، وركبت هذا البرذون لكان أجمل في المروءة ، وأحسن في المركز ، وخيراً في الجهاد .

فقال لهم عمر رضي الله عنه : ويحكم لاتعتزوا بغير ما أعزكم الله به فتدلوا .

ثم مضى، ومضى المسلمون معه حتى أتى إيلياء فنزل بها، فأثابه رجال من المسلمين، فيهم أبو الأعور السكّمي وقد لبسوا لباس الروم وتشبهوا بهم في هيئتهم .

فقال عمر رضي الله عنه : احثوا في وجوههم التراب حتى يرجعوا إلى هيئتنا وستتنا ولباسنا .

وكانوا قد أظهروا أشياء من الديباج . ثم أمر بهم فخرق ذلك عليهم .

فقال له يزيد بن أبي سفيان : يا أمير المؤمنين، إن الدواب والثياب عندنا كثيرة ، والعيش عندنا رفيع، والسعر عندنا رخيص، وحال المسلمين كما تحب ، فلو أنك لبست من هذه الثياب البيض، وركبت من هذه الدواب الغرّة، وأطعمت المسلمين من هذا الطعام الكثير كان أبعد للصوت، وكان أزين لك في هذا الأمر، وأعظم لك في الأعاجم .

فقال له : يا يزيد لا والله لا أدع الهيئة التي فارقت عليها صاحبِيّ، ولا أترين للناس بما أخاف أن يشينني عند ربي ، ولا أريد أن يعظم أمري عند الناس ويصغر عند الله .

ولم يترك عمر رضي الله عنه هيئته على الأمر الذي كان عليه في حياة رسول الله ﷺ وحياة أبي بكر رضي الله عنه ، حتى خرج من الدنيا (١) .

وهكذا أطرح عمر رضي الله عنه مظاهر الدنيا، ولم يُلْق لها

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٢ - ٢٥٤ .

بالا، وغلب عليه ذكر الآخرة ، ومافارق عليه صاحبيه رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، ولم يستطع أمراء المسلمين في الشام أن يؤثروا عليه بما ذكروا من مسوغات تغيير الملبس والمركب ونحو ذلك .

وتظهر في هذا الخبر حساسية عمر المرفهة نحو مظاهر الدنيا والخوف من الافتتان بها، ويذكره تراقص البرذون لما ركب بمظاهر الدنيا، فينزل عنه سريعاً ويعود إلى جملة، وهذا يدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه .

ونراه يركز في موعظته للمصحابة على الاعتصام بالإسلام الذي أعز الله به المسلمون، والحذر من النظر إلى المظاهر الدنيوية، واعتبار أنها سبيل إلى العزة والكرامة .

خطبة لعمر :

قال : ثم إن عمر - رضي الله عنه - قام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال : يا أهل الإسلام ، إن الله قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء ، وورثكم البلاد، ومكّن لكم في الأرض، فلا يكن جزاء ربكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي ، فإن العمل بالمعاصي كفر للنعم، وقُلْ ما كفر قوم بما أنعم الله عليهم، ثم لم يَفْزَعُوا إلى التوبة إلا سُلِبُوا عزّهم ، وسلّط عليهم عدوهم . ثم نزل (١) .

فأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يذكر المسلمين في هذه الخطبة

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٦ .

بأن ذلك العز الذي يعيشون فيه والتمكين في الأرض سببه نصر الله تعالى إياهم .

وضمنان ثباته واستدامته يكون بشكر المنعم جل وعلا بذكره وطاعته .

وزوال هذه النعم العظيمة يكون بمعصية الله تعالى فليحذر المسلمون من المعاصي حتى لا يُسلبوا عزهم في الدنيا ثم يبوؤوا بالندامة يوم القيامة .

أذان بلال :

وحضرت الصلاة، فقال عمر : يا بلال ، ألا تؤذن لنا رحمك الله؟ فقال بلال يا أمير المؤمنين ، أما والله ما أردت أن أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ ، ولكن سأطيعك اليوم إذ أمرتني في هذه الصلاة وحدها .

فلما أذن بلال ، وسمعت الصحابة صوته ذكروا نبيهم ﷺ ، فبكوا بكاء شديداً ، ولم يكن من المسلمين يومئذ أحد أطول بكاء من أبي عبيدة ابن الجراح ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما حتى قال لهما عمر رضي الله عنه حسبكما رحمكما الله (١) .

هذا الخبر يبين لنا حب الصحابة رضي الله عنهم العظيم لرسول الله ﷺ حيث بكوا ذلك البكاء الشديد لذكراه ، وإن هذا الحب العالي من أهم الدوافع التي دفعتهم للتقيد الشديد بسترته ، وبذلك ظهر تفوقهم في سلمهم وحرهم .

(١) فتوح الشام للأردني / ٢٥٦ .

شكوى من بلال :

فلما قضى عمر رضي الله عنه صلاته قام إليه بلال فقال : ياأمير المؤمنين ، إن أمراء أجنادك بالشام والله ما يأكلون إلا لحوم الطير والخبز النقي ، وما يجد ذلك عامة المسلمين .

فقال لهم عمر رضي الله عنه : مايقول بلال ؟

فقال له يزيد بن أبي سفيان : ياأمير المؤمنين ، إن سعر بلادنا رخيص ، وإننا نصيب هذا الذي ذكر بلال ههنا بمثل ما كنا به نقوت عيالاتنا بالحجاز .

فقال عمر رضي الله عنه لا والله لا أبرح العرصة^(١) أبداً حتى تضمّنوا لي أرزاق المسلمين في كل شهر .

ثم قال . انظروا كم يكفي الرجل مايشبعه ويكتفي به في كل يوم؟ فقالوا له : كذا وكذا .

قال : كم يكون ذلك في الشهر ؟ قالوا: جريين^(٢) مع ما يصلحه من الزيت والخلّ عند رأس كل هلال ، فضمّنوا له ذلك .

ثم قال : يامعشر المسلمين ، هذا لكم سوى أعطياتكم ، فإن وفى لكم أمراؤكم بهذا الذي فرضت لكم عليهم ، وأعطوكموه في كل شهر فذلك ماأحب ، وإن هم لم يفعلوا فأعلموني حتى أعزلهم عنكم وأولي أمركم غيرهم .

(١) أي ذلك المكان والعرصة المكان الواسع بين البيوت .

(٢) الجريب مكيال وزنه حوالي ثلاثين رطلا .

قال: فلم يزل ذلك جارياً لهم دهرًا من دهرهم حتى قطعه عنهم
ولاة السوء (١).

وهذا الذي ذكر بلال رضي الله عنه في هذا الخبر لا يعني أن أمراء
الجنود يوسعون على أنفسهم من الأموال العامة، بل إن ذلك من
أموالهم الخاصة، ولو كان من مال المسلمين لحاسبهم عليه أمير المؤمنين
عمر رضي الله عنه.

ولكن لما علم عمر بأن هناك تفاوتًا في المعيشة بين الأغنياء
والفقراء رفع من شأن الفقراء بما ضمن لهم من المعيشة اليومية إضافة
إلى أعطياتهم السنوية.

فلله در أمير المؤمنين عمر من أمير عادل يواسي الجراح ويقضي
الحاجات ويقارب بين طبقات المجتمع.
عمر يجري الصلح مع أهل بيت المقدس:

قال محمد بن عبد الله الأزدي: حدثني الحسن بن علي قال:
ولما قدم عمر ضربت له قبة من شعر، وجلس فيها على التراب ثم قام
يصلي، وعلت للمسلمين ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير، فسمع أهل
إيلياء، فأشرفوا عليهم لينظروا شأنهم، ونادى واحد منهم: يامعشر
العرب ماشأنكم؟

قالوا: إن أمير المؤمنين عمر قد قدم علينا من مدينة نبينا، قال:
فرجع فأعلم البطريق، فأطرق إلى الأرض لا يتكلم.

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٥٦ - ٢٥٧.

فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر قال لأبي عبيدة :
تقدم إلى القوم ، وأعلمهم أنني قد أتيت .

قال : فخرج أبو عبيدة ، وصاح بهم وقال ، إن صاحبنا أمير
المؤمنين قد قدم ، فما تصنعون فيما قلتم ؟

قال : فأعلموا البطريق فخرج من كنيسته، وعليه المسوح،
وترجل الرهبان والقسس والأساقفة معه، وقد حمل بين يديه صليبا
لايخرجونه إلا في يوم عيدهم، وتقدم إزاء أبي عبيدة وقال : يا هذا
الرجل ، إن كان صاحبك قد أتى فدعه يذنُ منا، فإننا نعرفه، وأفردوه
من بينكم، وليقف بإزائنا حتى نراه .

قال : فرجع أبو عبيدة إلى عمر ، وأخبره بما قال البطريق .
فهمَّ عمر بالقيام ، فقال له أصحابه ، ياأمير المؤمنين ، تخرج
إلهم منفردا وليس عليك آلة حرب، وإنا نخشى عليك منهم غدرا
ومكرا، فينالون منك .

فقال عمر : ﴿ قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

ثم أمر ببيعيره ، فاستوى عليه ، وسار بين القوم ، وليس معه
غير أبي عبيدة ، حتى قرب من السور ، ووقف بإزاء البطريق
والجالثليق .

وتكلم البطريق وقال : هذا والله الذي نجد صفته، ويكون فتح
بلادنا على يديه .

(١) سورة التوبة آية (٥١) .

ثم إنه قال لأهل بيت المقدس : انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة ، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله .

قال : فلما سمعت الروم كلام البطريق نزلوا مسرعين ، وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار ، ففتحو الأبواب ، وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة ، ويقرّون له بالجزية .

فنظر إليهم عمر ، وخر ساجداً لله وقال : ارجعوا إلى بلادكم وذويكم ولكم الذمة والعهد إذا سألتمونا وأقررتهم الجزية .

قال : ورجع عمر إلى عسكره فبات فيه ليلة (١) .

هذا وقول عالم النصارى عن عمر رضي الله عنه « فلإنا نعرفه » يعني أنه مذكور في كتبهم التي ورثوها عن أنبيائهم عليهم السلام بصفته ، وكونهم طلبوا أن يكون الصلح على يده دليل على أن اسمه موجود في كتبهم ، وقد جاء في رواية أخرجه الإمام الطبري أن عمرو بن العاص رضي الله عنه خادعهم ليعرف من هو الذي ذكر في كتبهم يتم الصلح على يديه ، حيث كتب كتاباً إلى الأرطبون جاء فيه « وقد علمت أنني صاحب فتح هذه البلاد » وأرسله مع : جل يعرف لغتهم وأمره أن يتنكر وأن لا يكلمهم بلغتهم ، فقرأ الأرطبون الكتاب بمشهد من وزرائه فقالوا له : من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ قال : صاحبها اسمه « عمر » ثلاثة أحرف (٢) .

هذا وإن ذهاب أمير المؤمنين عمر إليهم وهو أمير العالم

(١) فتوح الشام / ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٦٠٦/٣ .

الإسلامي ، وكلُّ الأعداء يتمنون قتله . . إن ذهابه إليهم بغير سلاح وليس معه إلا أبو عبيدة دليل على عظمة توكله على الله جل وعلا .

بشرى عظيمة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني عطاء عن شهر بن حوشب عن كعب^(١) قال ، قلت لعمر رضي الله عنه ، وهو بالشام عند انصرافه : يا أمير المؤمنين ، إنه مكتوب في كتاب الله تعالى ، إن هذه البلاد التي كان فيها بنو إسرائيل وكانوا أهلها مفتوحة علي رجل من الصالحين ، رحيم بالمؤمنين ، شديد على الكافرين ، سره مثل علانيته ، وعلانيته مثل سره ، وقوله لا يخالف قلبه ، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء ، وأتباعه رهبان بالليل ، وأسدُّ بالنهار ، متراحمون ، متواصلون ، متنازلون .

فقال له عمر رضي الله عنه : ثكلتك أمك ، أحقُّ ما تقول ؟
قال : إي ، والذي أنزل التوراة على موسى ، والذي يسمع ما أقول إنه لحق .

قال عمر رحمة الله عليه فالحمد لله الذي أعزَّنَّا ، وأكرمنا وشرفنا ، ورحمنا بمحمد ﷺ وبرحمته التي وسعت كل شيء .
قال : وكان كعب رجلا من العرب من أهل اليمن من حمير^(٢) .
وهذه صفات جليلة عالية تدل على عظمة عمر والصحابة الذين معه رضي الله عنهم .

(١) كعب هو المشهور بكعب الأحبار الحميري .

(٢) فتوح الشام / ٢٦٢ .

عمر في المسجد الأقصى :

أخرج ابن جرير عن رجاء بن حيوة عن من شهد أنه قال : لما شخص عمر من الجابية إلى « إيلياء » فدنا من باب المسجد قال : ارقبوا لي كعبا - يعني كعب الأحبار لعلمه بما في الكتب السابقة - فلما انفرق به الباب قال : لبيك اللهم لبيك بما هو أحب إليك ، ثم قصد المحراب ، محراب داود عليه السلام ، وذلك ليلاً فصلى فيه ، ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة فتقدم فصلى بالناس ، وقرأ بهم « ص » وسجد فيها ، ثم قام وقرأ بهم في الثانية صدر « بني إسرائيل » ^(١) ثم ركع ثم انصرف .

فقال : عليّ بكعب ، فقال : أين ترى أن نجعل المصلّى ؟ فقال : إلى الصخرة ، فقال : ضاهيت والله اليهودية يا كعب ، وقد رأيتك وخلعتك نعليك ، فقال : أحبت أن أباشره بقدمي ، فقال : قد رأيتك ، بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله ﷺ قبلته مساجدنا صدورها ، اذهب إليك فإننا لم نؤمر بالصخرة ، ولكننا أمرنا بالكعبة ، فجعل قبلته صدره .

ثم قام إلى كناسة قد كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل ، فلما صار إليهم أبرزوا بعضها وتركوا سائرها ، وقال : يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع ، وجثا في أصلها وحثا في فرج

(١) يعني سورة الإسراء ، وفي السورتين مناسبة ظاهرة ، فسورة (ص) فيها ذكر داود وسليمان عليهما السلام ، وقد عمرا المسجد الأقصى ، وسورة الإسراء فيها ذكر مسرى رسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى .

من فروج قبائه وسمع التكبير من خلفه، وكان يكره سوء الرعة في كل شيء ، فقال: ما هذا ؟ فقالوا : كبر كعب وكبر الناس بتكبيره، فقال: عليّ به، فأُتي به، فقال: ياأمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة، فقال: وكيف؟ فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأدبلوا عليهم، فدفنوه- يعني بيت المقدس- ثم أدبلوا - يعني بني إسرائيل - فلم يفرغوا له - يعني لتنظيفه- حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بني إسرائيل ، ثم أدبلت الروم عليهم حتى وكيت ، فبعث الله نبيا على الكناسة- يعني في أمرها وذلك قبل خمسمائة عام من ذلك التاريخ كما ذكر كعب - فقال: أبشري «أوري شلم» عليك الفاروق ينقيك مما فيك (١) .

وهذه فضيلة عظمى لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث ذكره الأنبياء عليهم السلام ، وقام بتنظيف المسجد الأقصى ، وأظهر الحق الذي غطى عليه الروم والفرس .

وصول عمر إلى المدينة :

ثم إن عمر رضي الله عنه أقبل نحو المدينة ، فاستقبله الناس، يهنتونه بالنصر والفتح، فجاء حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ فصلى ركعتين عند المنبر ، ثم صعد المنبر ، فاجتمع الناس إليه، فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ وقال :

أيها الناس ، إن الله قد اصطنع عند هذه الأمة أن يحمده

(١) تاريخ الطبري ٦١١/٣ ، وأوري شلم اسم القدس بالعبرانية وينطقونها الآن أورشليم.

ويشكروه، وقد أعز دعوتها، وجمع كلمتها، وأظهر قَلَجها ونصرها
على الأعداء، وشرفها ومكَّن لها في الأرض، وأورثها بلاد المشركين
وديارهم وأموالهم، فأحدثوا لله شكراً يزدكم، وأحمدوه على نعمه
يُدْمِها لكم ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين ثم نزل (١) .



(١) فتوح الشام / ٢٦٦ .

٦ - حصار الروم مدينة حمص -

ذكر الإمام الطبري في أحداث السنة السابعة عشرة للهجرة أن الروم وأهل الجزيرة ^(١) اتفقوا على غزو المسلمين والهجوم على مدينة حمص، فلما علم أبو عبيدة بذلك ضمَّ إليه جيوشه القريبة وعسكروا بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه من «قنسرين» حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء الجيوش فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصن إلى مجيء الغياث، فكان خالد يرى مناجزتهم، وأشار سائرهم بالتحصن، وأن يكتب إلى عمر، فأخذ أبو عبيدة برأي الأكثر، وكتب إلى عمر يخبره بخروج الروم إليه، وانشغال أجناد الشام عنه بالمرابطة في مواقعهم فلما بلغ الخبر عمر رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به .

وكان عمر قد أعد خيولاً احتياطية في كل بلد استعداداً للحروب المفاجئة، فكان في الكوفة أربعة آلاف فرس، فجهز سعد عليها الجيش الذي أرسله إلى الشام .

وكتب عمر أيضاً إلى سعد : أن سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليأت « الرقة » فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وإن أهل « قرقيساء » لهم سلف، وسرح عبد الله ابن عبد الله بن عتبان إلى « نصيبين » فإن أهل قرقيساء لهم سلف،

(١) يعني بلاد الجزيرة التي تقع شمال غرب العراق وهي الآن تابعة لسوريا .

ثم لينفضا حرَّان والرُّها، وسرَّح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وسرح عياضًا، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعًا إلى عياض بن غنم .

فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريقهم نحو الأهداف التي وجهوا إليها .

وخرج أمير المؤمنين عمر من المدينة مغيثًا لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية .

وعلم أهل الجزيرة الذين اشتركوا مع الروم في حصار أهل حمص بخروج الجيوش من العراق، ولا يدرون هل مقصدهم حمص أم بلادهم في الجزيرة فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم، وتركوا الروم يواجهون المعركة وحدهم .

ولما رأى أبو عبيدة أن أنصار الروم من أهل الجزيرة قد انفضوا عنهم، استشار خالدا في الخروج إليهم وقتالهم فأشار عليه بذلك، فخرجوا إليهم وقاتلوهم وفتح الله عليهم .

وقدم القعقاع بن عمرو ومن معه من أهل الكوفة بعد ثلاثة أيام من المعركة .

وقدم أمير المؤمنين عمر فنزل بالجابية ، فكتبوا إليه بالفتح وبقدوم المدد عليهم بعد ثلاثة أيام من الفتح وبالحكم في ذلك، فكتب إليهم : أن أشركوهم فإنهم قد نفروا إليكم وقد تفرق لهم عدوكم (١) .

(١) تاريخ الطبري ٥٠ / ٤ .

هذا وإن في هذا الخبر مواقف عالية للصحابة رضي الله عنهم
نوجزها فيما يلي :

١ - حينما داهم الروم وأحلافهم المسلمين جمع أبو عبيدة أمراء
الأجناد فاستشارهم في القتال أو التحصن حتى مجيء الأمداد من
الخليفة ، وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة التي تدل على أن أمور المسلمين
في ذلك العصر تقوم على الشورى ، وقد أمر الله جل وعلا
رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه مع أنه معصوم كما قال تعالى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ
فِي الْأَمْرِ ﴾ (١) وطبق ذلك في حياته وتأسى به فيه أصحابه رضي الله
عنهم .

ومشورة أهل الحل والعقد في الأمور المهمة تجمع عقولا كثيرة
كلها تفكر في القضية بدلا من أن يفكر فيها عقل الرجل المسئول وحده
فَيُنتِج عن ذلك رأي موحد مدروس ، وفي حال فشل القضية لا تكون
المسئولية متركزة على فرد واحد ، ويتضاءل إنكار الناس لكون القضية
قد دُرست وبذل فيها الجهد .

٢ - جاء في هذا الخبر أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد
أعد خيولا للأمور الطارئة ، في جميع أقطار المسلمين ، ووكل بها
أناسا يقومون بسياساتها وتدريبها لتكون مستعدة للجري في أي وقت
فإذا نابت المسلمين نائبة ركبها قوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس كما
جاء في بعض الروايات (٢) .

(١) سورة آل عمران / ١٥٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٥٢/٤ .

وفي هذا دليل على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأمور الجهاد، وعنايتهم بتنفيذ أوامر الله تعالى كقوله ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ (١) .

وواضح أنه لكل عصر أسلحته ووسائله الخاصة به، والصحابة رضي الله عنهم قد بلغوا في عصرهم أعلى المستويات في الاستعدادات الحربية، مع ما اختصوا به من القوة المعنوية الفائقة، الناتجة عن تمسكهم القوي بهذا الدين الحنيف، فلذلك فشل الأعداء في مواجهتهم سواء في الحروب التي يتم التخطيط لها والعلم بها، أو في محاولاتهم المتكررة للغدر بالمسلمين وأخذهم على غرة .

٣- حينما نتأمل هذه الخطة الحربية البديعة التي رسمها عمر رضي الله عنه لإرباك الأعداء وتفريقهم نجد أمراً عجباً، ويزداد عجبنا إذا علمنا أنه يضع الخطط الحربية وهو بعيد عن ميدان المعارك ، فقد أمر ببعث جيش سريع من الكوفة إلى حمص ليقوم بعملية الإنقاذ وخرج هو بجيش من المدينة ، وهذا كله يبدو أمراً معتاداً ، ولكن الأمر الذي يثير الإعجاب هو ما قام به من الأمر ببعث الجيوش إلى بلاد المحاربين ليضطروهم إلى ترك ميدان القتال والتفرق إلى بلادهم لحمايتهم، وقد نجحت هذه الخطة حيث تفرقوا فهان على المسلمين القضاء على الروم .

(١) سورة الأنفال / ٦٠ .

٤ - ونستفيد أخيراً أن أعداء المسلمين جميعاً لا يؤمن غدرهم وإن هادنوا المسلمين وأظهروا مسالمتهم، فإنهم إنما يتحینون الفرص المناسبة للانقضاض على المسلمين والقضاء عليهم، وقد كانت مواقف الصحابة رضي الله عنهم عالية في أخذ الحيطة والحذر والرصد الحربي الدائم حيث كانوا يعرفون تحركات الأعداء في وقت مبكر وقد مرت بنا أمثلة واضحة لذلك .

ويحسن بنا أخيراً أن نعقد مقارنة بين مواجهة المسلمين لغزو الروم هذا ومواجهتهم لغزوهم السابق الذي تم حسمه بمعركة اليرموك ، ففي الغزو السابق خرج أبو عبيدة وخالد بجيش المسلمين من حمص وضموا إليهم جيشهم في دمشق وخرجوا منها واجتمعت جيوش المسلمين في جنوب الشام ليوажهوا أعداءهم وهم جميع ، وفي الغزو الأخير ظل أبو عبيدة وخالد مع جيش المسلمين في حمص وتحصنوا بها إلى أن يصل مدد المسلمين .

والفرق واضح فإنه في الغزو الأول كان كل من يستطيع الخليفة أن يجندهم قد وجههم إلى العراق، وكان المسلمون في انتظار المعركة الحاسمة في القادسية فليس من المؤمل أن يصل إليهم مدد كبير، فكان الرأي أن تجتمع الجيوش في الشام لمواجهة الأعداء ولو تخلوا عن المدن، أما الغزو الأخير فكانت جيوش العراق قد انتهت من المعركة الفاصلة وبإمكان أمير المؤمنين أن يمددهم من العراق والمدينة، فكان الرأي بقاء الجيوش في حماية المدن الكبيرة والتحصن إلى حين وصول المدد .

* * *

٧ - فتح بلاد الجزيرة -

تقدم لنا أن الروم وأهل بلاد الجزيرة التي تقع جنوب بلادهم أغاروا على مدينة حمص وحصروا فيها أبا عبيدة رضي الله عنه والمسلمين وأن عمر رضي الله عنه أرسل إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يأمره بإمداد أهل حمص بجيش يخرج من الكوفة إلى حمص، وجيوش تخرج إلى الجزيرة .

وقد أرسل سعد جيشا من الكوفة بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي، وأرسل جيوشا إلى الجزيرة وكلها تحت قيادة عياض بن غنم رضي الله عنه .

فخرجت هذه الجيوش إلى الجزيرة فسلك سهيل بن عدي وجنده طريق الفراض حتى انتهى إلى « الرقة » فحاصروهم، فنظروا إلى أنفسهم بين قوتين للمسلمين في العراق والشام فصالحوه .

وسلك عبد الله بن عبد الله بن عتبّان طريق دجلة حتى انتهى إلى نصيبين فلقية أهلها بالصلح كما صنع أهل الرقة .

ولما أعطى أهل الرقة ونصيبين الطاعة ضم عياض سهيلا وعبد الله إليه وسار بالناس إلى حران فأخذ مادونها، فلما انتهى إليهم اتفقوا بالإجابة إلى الجزيرة فقبل منهم ، ثم سرح سهيلا وعبد الله إلى الرها فاتفقوهما بالإجابة إلى الجزيرة .

وهكذا فتحت الجزيرة كلها على سعتها صلحا، فكانت أسهل البلدان أمرا (١) .

(١) تاريخ الطبري ٥٣/٤ .

ولو عقدنا مقارنة بين فتح بلاد الجزيرة ، وماتم فتحه من بلاد المسلمين قبل ذلك لوجدنا فرقا كبيراً في الجهود الذي بذلت في تلك البلاد .

وهذا إنما يرجع لعزة المسلمين وقوة دولتهم ، فكلما قويت شوكة المسلمين ، وانتشر وجودهم الحربي فإن الأعداء يرهبونهم فليقون لهم ما بأيديهم ويستسلمون لهم بدون مقاومة ، ولا يفكرون في غزو بلادهم ، وكلما ضعف أمر المسلمين وتضاءل وجودهم الحربي فإن الأعداء يطمعون بهم ، ويصعب عليهم - والحال هذه - القضاء على قوة أعدائهم .

ومن العرض السابق لفتح بلاد الجزيرة يتبين لنا بجلاء أهمية سلاح الرعب الذي ينصر الله به المسلمين إذا قاموا بأمره تعالى وأقاموا علم الجهاد في سبيله ، وهذا السلاح يوفر عليهم جهوداً كبيرة حيث يضطر المعاندين إلى الاستسلام والصلح بدون مقاومة .

وكان من قادة المسلمين في فتح بلاد الجزيرة الوليد بن عقبة وقد انحاز إليه المسلمون من عرب الجزيرة وصالحه الكفار منهم إلا بني إياد ابن نزار فإنهم ارتحلوا إلى الروم ، وقد كتب الوليد إلى أمير المؤمنين يُعلمه بأمرهم فكتب عمر رضي الله عنه إلى ملك الروم : إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فو الله لتُخرجنه أو لننبذنَّ إلى النصارى ، ثم لنُخرجنهم إليك ، فأخرجهم ملك الروم ، فخرجوا ، فتمَّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد ، وخنس بقيتهم ففترقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم ، فكل

إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف (١) .

وفي هذا الخبر نموذج للمواقف العالية التي جرت من خلفاء المسلمين في معاملتهم مع الأعداء ، فإن الأعداء في أغلب الأزمان لهم مصالح في بلاد المسلمين تَقَلُّ أو تكثر ، وبإمكان قادة المسلمين أن يحملوا الأعداء على احترام المصالح الإسلامية بتهديدهم في مصالحهم التي يرونها في بلاد الإسلام .

وكان بعض عرب الجزيرة من النصارى قد رفضوا دفع الجزية لكونهم يرونها منقصة ومذمة ، فبعث الوليد برؤساء النصارى وعلمائهم إلى أمير المؤمنين فقال لهم : أدُّوا الجزية : فقالوا لعمر : أبلغنا مأمنا ، والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم والله لتفضحنَّ من بين العرب ، فقال لهم : أنتم فضحتم أنفسكم ، وخالفتم أمتكم فيمن خالف واقتضح من عرب الضاحية ، والله لتؤدنه وأنتم صَغَرَةٌ قَمَاءَةٌ [يعني حقيرين] ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ، ثم لأسبينكم .

قالوا : فخذ منا شيئاً ولا تسمه جزاء ، فقال : أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ماشئتم ، فقال له علي ابن أبي طالب : يا أمير المؤمنين ألم يُضْعَفِ عليهم سعد بن مالك الصدقة؟ قال : بلى ، وأصغى إليه فرضي به منهم جزاء ، فرجعوا على ذلك .

ومن هذا الخبر نأخذ درساً في معاملة المتكبرين من الأعداء الذين يخاطبون المسلمين بعزة وأنفة ويهددون باللجوء إلى دول الكفر ، فنجد

(١) تاريخ الطبري ٥٤/٤ .

أمير المؤمنين عمر خاطبهم بعنف وحقّرهم وهددهم إذا لجئوا إلى الكفار بالسعي في إحضارهم ومعاملتهم كمعاملة الحربيين من سبي ذراريهم ونسائهم ، وهذا أشد عليهم كثيراً من دفع الجزية .

ففي هذا الجواب القوي أزال مافي رؤوسهم من الكبرياء والتعاضم فرجعوا متواضعين يطلبون من أمير المؤمنين أن يوافق على أخذ ما يريد من غير أن يُسمّى ذلك جزية .

وهنا تدخل علي رضي الله عنه - وكان لرأيه مكانة عند عمر لفقهه في الدين - فأشار عليه بأن يُضَعِف عليهم الصدقة كما فعل سعد بن أبي وقاص بأمثالهم ، فقبل ذلك أمير المؤمنين تألفاً لهم ومنعاً من محاولة اللجوء إلى دول الكفر .

وقد أصبح هذا الرأي مقبولا حينما وقع موقعه ، وذلك بعد ما أزال أمير المؤمنين عمر ما في نفوسهم من العزة والكبرياء ، فأما لو قبل ذلك منهم في بداية العرض فإنهم سيعودون بكبريائهم ولا يؤمن منهم بعد ذلك أن ينقضوا العهد ويسيثوا إلى المسلمين .

* * *

٨ - عزل خالد عن قنسرين -

تبين لنا أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جاء بنفسه نجدة لأبي عبيدة رضي الله عنه ومن معه من المسلمين في حمص وحينما اطمأن عمر إلى حال المسلمين هناك عاد إلى المدينة .

وعلى إثر عودة أمير المؤمنين إلى المدينة قام خالد بن الوليد ومعه عياض بن غنم رضي الله عنهما في جيش من المسلمين بغزو الروم في بلادهم ، ولعلهم أرادوا بذلك إرهاب الروم حتى لا يتجرؤوا على غزو المسلمين مرة أخرى .

وقد قاموا بمغامرة جريئة نجحت وغنموا فيها غنائم كثيرة ، ولكن كان من نتائجها عزل خالد بن الوليد عن ولاية قنسرين ، وهو العزل النهائي له عن العمل ، وذلك أنه لما رجع من الغزوة وتسامع الناس بما غنم قصده رجال من الآفاق ، وكان ممن قصده الأشعث بن قيس الكندي فأجازه خالد بعشرة آلاف ، وكان عمر لا يخفى عليه شيء من عمله ، حيث كان يكتب إليه بما يكون من عماله ، فدعا البريد فكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث ، أمن ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة فقد أقر بخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف .

وتم استجوابه بحضور أبي عبيدة ، وأقر بأن ذلك كان من ماله ، ولما علم بعزله ودع أهل الشام وخرج إلى المدينة إجابة لطلب أمير المؤمنين ، فلما قدم على عمر ، قال : لقد شكوتك إلى المسلمين ،

وبالله إنك في أمري غير مُجمل يا عمر ، فقال عمر : من أين هذا الشراء؟ قال : من الأنفال والسهمان ، مازاد على الستين ألفا فهو لك ، فقوم عمر عروضة فخرجت إليه عشرون ألفا فأدخلها بيت المال ، ثم قال : يا خالد والله إنك عليّ لكریم ، وإنك إليّ لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء (١) .

وهكذا نجد الموقف أمام قضية فيها حرج كبير لأُمير المؤمنين عمر ، حيث يُقدم فيها على استجواب رجل بلغت شهرته الآفاق ، فحاز على إعجاب المؤمنين ، وأرهب الكافرين في كل أقطار الأرض ، ولكن عمر أمام مبادئ إسلامية واضحة لا بد من أن يطبقها ، وجاهلية بقيت رواسبها عالقة ببعض النفوس لا بد أن يطمسها ، فالمال في الإسلام لا بد من التحري الدقيق فيه ، من أين اكتسب وفيه أنفق؟ خاصة من الولاة الذين يقتدى الناس بهم ، وإذا كان الاكتساب حلالاً ، والإنفاق في حلال فلا بد من اجتناب السرف والخيلاء وإلا وقع المنفق في المأثم .

كان ذلك واضحاً أمام عمر ، وكان واضحاً لديه فيما يتعلق بهذا الأمر أن من رواسب الجاهلية تطلُّع ذوي الشرف واللسان إلى انتجاع ذوي السلطان والغنى وطلب رفدهم وعائدتهم عن طريق الثناء بالشعر وغير ذلك من الوسائل المعروفة .

فلما سمع بأن من هؤلاء من قصدوا خالد بن الوليد لهذا الغرض فزع من ذلك وأشفق على المجتمع الإسلامي أن تحيا فيه عوائد الجاهلية ، فكانت عقوبته لخالد بليغة مؤثرة .

(١) تاريخ الطبري باختصار ٦٧/٤ .

وهذه العقوبة من النظرة الأولى تبدو أكبر بكثير من المخالفة، ولكن عند التأمل في الدوافع التي دفعت عمر إلى إجرائها يتبين لنا أنها إجراء مناسب لإقرار مبادئ الإسلام ومحو مبادئ الجاهلية، هذا الأمر الذي ظل عمر يجاهد من أجله بقوة لا تعرف الكلل ولا التردد.

ولقد كان إجراء هذه العقوبة على رجل عظيم القدر في المجتمع الإسلامي وأثير عند عمر نفسه له أكبر الأثر في قطع هذا الطريق الذي مُحي تماماً في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، وبدأ الناس يعودون إليه لما كثرت عوائد الفتوح .

أما خالد رضي الله عنه فلا شك أنه لم يكن يتصور هذه الآثار الناجمة عن تصرفه ، وكان رجلاً كريماً شهماً فأجاز قاصديه من ماله الخاص .

وقد يقول قائل : إنه كان يكفي في معاقبته بعث خطاب عتاب وتحذير إليه ، أو تغريمه المبلغ المصروف مع ذلك، ولكن عمر رضي الله عنه كان أخبر الناس بطبيعة خالد، فهو رجل قد بلغ الكمال في القيادة الحربية ، ولكنه ليس على النمط الذين يريدون عمر للإمارة حيث كان لا يلزم نفسه بالتحري الدقيق في الحسابات والرجوع في ذلك إلى دار الخلافة ، يدل على ذلك المحاورة التي جرت بين أبي بكر وعمر في شأن خالد رضي الله عنهم ، وقد ذكرها الحافظ ابن كثير قال :

وقد حكى مالك عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر : اكتب إلى خالد أن لا يعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمرك ، فكتب أبو بكر إلى

خالد بذلك فكتب إليه خالد : إما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك وعملك ، فأشار عليه عمر بعزله ، فقال أبو بكر : فمن يجزي عني جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا ، قال : فأنت ، فتجهز عمر حتى أُنيخَ الظهر في الدار ، ثم جاء الصحابة فأشاروا على الصديق بإبقاء عمر بالمدينة وإبقاء خالد بالشام . فلما ولي عمر كتب إلى خالد بذلك فكتب إليه خالد بمثل ذلك فعزله ، وقال : ما كان الله ليراني أمر أبابكر بشيء لا أنفذه أنا (١) .

وهذا الخبر يدلنا على أن أبا بكر كان يعلم ميل خالد إلى الاجتهاد في صرف الأموال أحياناً ، ولكنه أبقاه لعدم وجود من يقوم مقامه في الشؤون الحربية .

واستعداد عمر لأن يقوم مقام خالد في ذلك ليس من باب سؤال الإمارة المنهي عنه ، وإنما هو مما تقدم بيانه من أن المسلم إذا أنس من نفسه الكفاءة في عمل معين وأمن الفتنة فلا بأس من أن يعرض نفسه للعمل ، على أنه مُقدم على عمل صالح فيه خدمة للإسلام والمسلمين .

وهذا هو العزل الأول لخالد حين كان أميراً على الشام ، فعزله عمر وولّى أبا عبيدة إمرة الشام ولكن ظل خالد قائداً للجيش تحت إمرة أبي عبيدة إلى أن فتح قنسرين فولاه عليها وأقره على ذلك أمير المؤمنين عمر .

وقد اعتذر عمر إلى الناس من عزله لخالد عن إمرة الشام بأمرين :

(١) البداية والنهاية ١١٥/٧ .

أولهما : يتعلق بحماية التوحيد ، وقد روى الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن عدي بن سهيل قال : كتب عمر إلى الأمصار : إني لم أعزل خالدا عن سخطه ولاخيانة ، ولكن الناس قُتِنوا به ، فخفت أن يוכלوا إليه ويُبْتَلُوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لا يكونوا بعَرَضٍ فتنه (١) .

وهذا ملحظ مهم لأن التوكل على الله وحده هو العامل الرئيس في النصر . وفيه تبرئة لخالد ، وبيان أن ماتجاوز فيه كان عن اجتهاد منه في خدمة الجهاد ولم يكن عن خيانة .

والثاني : هو ماتقدم من تجاوزه في صرف المال ، وقد روى الإمام البخاري في التاريخ وغيره من طريق علي بن رباح عن ياسر بن سمي البرني قال : سمعت عمر يعتذر إلى الناس بالجابية من عزل خالد ، فقال : أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف واللسان ، فأمرت أبا عبيدة (٢) .

ولاشك أن عمر وخالداً مجتهدان فيما ذهبا إليه ولكن عمر أدرك أموراً لم يدركها خالد رضي الله عنهما .

حياة خالد بن الوليد الجهادية :

لقد بدأ خالد بن الوليد رضي الله عنه حياته الجهادية في السنة التي أسلم فيها وذلك في العام الثامن للهجرة ، حيث حاز على شرف اللقب الجهادي العظيم « سيف الله » يوم أن كانت النهاية المشرفة

(١) تاريخ الطبري ٦٨/٤ .

(٢) البداية والنهاية ١١٥/٧ .

لمعركة «مؤتة» على يده ، فلقبه رسول الله ﷺ بهذا اللقب .

ثم تتابعت أحداثه الجهادية في أواخر حياة النبي ﷺ ، ومن أبرز ذلك قيادة سرية « دومة الجندل » ، وقيادة مقدمة الجيش في « فتح مكة المكرمة وحنين » .

ثم كان جهاده الكبير في حروب الردة في العام الحادي عشر ، حيث قضى على تجمع طليحة الأسدي وتجمع مسيلمة الحنفي ، اللذين هما أضخم التجمعات الحربية في جزيرة العرب آنذاك ، وكانت تلك المعركتان أبرز معارك حروب الردة ، حيث تقرر بهما مصير بلاد العرب لصالح دولة الإسلام .

ثم قام في العام الثاني عشر بقيادة الجيش الإسلامي الموجه لجهاد الفرس ، حيث تمت على يده فتوح العراق الأولى التي نجحت في إضعاف قوة الفرس وضم غربي العراق للدولة الإسلامية .

ثم كان له شرف المشاركة في فتوح الشام وقيادة معاركها ، ومن أبرزها معركتا فحل واليرموك التي تقرر بها مصير الحروب بين المسلمين والروم .

لقد كان خوض معامع القتال والاصطلاء بنار الحروب وأهوالها أعظم هوايات خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وإذا كان كثير من الناس يحبون الراحة والدعة والسكون فإننا نجد خالدًا يقول في أمنيته المحبوبة إليه : مامن ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس

أنا لها محب أحب إليّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبح فيها العدو (١) .

وهكذا تُحبّ المعالي إلى النفوس العالية ، فالقتال أمر مكروه للنفوس حسب طبائعها المعتادة كما قال الله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ولكنه أمام الأفاذ من الرجال محبوب ، بل هو أحب إليهم من الشهوات التي جبل الإنسان عليها، وذلك أن من سما بفكره نحو المعالي من الأمور يعيش بخياله وأحاسيسه لهذه الأمور فلا يكاد يفكر بشيء غيرها .

وكلما حالت المشاقُّ والعقبات دون الوصول إلى المراد كلما ازداد أصحاب الهمم العالية إصراراً وشوقاً إلى بلوغ المقصود، ويصور ذلك شدو خالد بن الوليد بقطع المفاوز في ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد والأمل يحدوه إلى ملاقة عدوه في الصباح .

ويشبه هذه الأمنية السامية - مع الفارق الكبير في البذل والتضحية - هيام أهل العلم بالتحصيل والبحث، حتى ينسيهم الاستغراق في ذلك كثيراً من الملذات الحسية والمعنوية التي يتنافس الناس عليها .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام
وإنه بمثل هذا البطل المغوار ، والقائد المقدام ينتشر الإسلام وتُحمى

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٧٥ .

(٢) البقرة / ٢١٦ .

بلاد المسلمين ، وتقوم دولة الحق ورايته عالية فوق بقاع المعمورة .

فما أحوج الأمة الإسلامية إلى الرجال الأكفاء الذين يجسّدون هذه المعاني السامية ، فيحيونها بتضحيات يراها الناس ويحسون بها ، فإن مآثر الأمة الماضية تظل مادة مذكّرة عبر الأجيال ، ولكن الانتفاع الكامل بها يتم بالتأسيّ بأولئك العظماء ، وتطبيق هذه المعاني الكريمة من عظماء الرجال الذين يشاركون أفراد الأمة في ظروف الحياة المعاصرة ، حتى لا يظن ظانٌّ أن هذه المواقف والدروس التربوية إنما كانت في عصور ملائمة لوجودها ، وأنّ تكرارها يتطلب ظروفًا حياتية مشابهة .

والحقيقة أنه كلما قوى المحرك الإيماني فإن الله تعالى يتكفل بنصر أوليائه ، وتسخير ظروف الحياة لصالحهم .
نهاية خالد :

بعد ذلك العمر الجهادي القصير نسبيا ، المليء بالأحداث الجهادية المتلاحقة حانت وفاة هذا البطل الكبير الذي كان أعظم قادة العالم في عصره ، وذلك في العام الحادي والعشرين للهجرة (١) .

ولقد كان ذكّر الجهاد على لسان خالد حتى في حال احتضاره ، كما ذكر الإمام الذهبي من خبر عاصم بن بهدلة عن أبي وائل أظن قال : لما حظرت خالدًا الوفاة قال : لقد طلبت القتل مظانه فلم يُقدّر لي إلا أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بُتّها وأنا مُتترّس والسماء تهلّني تنتظر الصبح حتى

(١) سير أعلام النبلاء ٣٨٣/١ .

نغير على الكفار، ثم قال : إذا مِتُّ فانظروا إلى سلاحي وفرسي
فاجعلوه عِدَّةً في سبيل الله (١) .

كما ذكر الذهبي عن أبي الزناد : أن خالد بن الوليد لما احتُضِرَ
بكى وقال : لقيت كذا وكذا زحفاً، ومافي جسدي شبر إلا وفيه ضربة
بسيف أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما
يموت العَيْرُ (٢) ، فلا نامت أعين الجبناء (٣) . فرضي الله عن خالد
ورحمه رحمة واسعة .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ٣٨١ / ١ .

(٢) أي الحمار .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٨٢ / ١ .

مواقف وعبر
فى
فتح المدائن

١ - في الطريق إلى المدائن -

نتقل إلى الحديث عن المواقف التي جرت بين القادسية وفتح المدائن، وقد أقام سعد رضي الله عنه في القادسية شهرين حتى أتاه أمر أمير المؤمنين بالتوجه نحو المدائن، فبعث مقدمة الجيش بقيادة زهرة بن الحوية، وأتبعه بعبد الله بن المعتم في طائفة من الجيش ثم بشرحبيل بن السمط في طائفة أخرى، ثم بهاشم بن عتبة بن أبي وقاص وقد جعله على خلافته بدلاً من خالد بن عرفطة، ثم لحق سعد بهم ببقية الجيش وقد جعل على المؤخرة خالد بن عرفطة .

معركة « برس » :

ارتحل قائد المقدمات زهرة بن الحوية التميمي متوجهاً نحو المدائن، فلما انتهى إلى « برس » لقيه بها أحد قادة الفرس وهو « بصبهري » في جمع فناوشوه فهزمهم زهرة، فهرب بصبهري ومن معه إلى « بابل » وبها جمع من فلول الفرس في القادسية وبقايا رؤسائهم، وقد طعن زهرة بصبهري أثناء هروبه فمات بعد وصوله إلى بابل .

ولما هُزم بصبهري أقبل « بسطام » أمير برس فصالح زهرة وعقد له الجسور، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل (١).

معركة بابل :

لما علم زهرة بخبر الذين اجتمعوا ببابل كتب إلى سعد بالخبر، ولما علم سعد بذلك ارتحل بالناس على نظامه السابق، ولما وصل إلى « برس » قدم زهرة، ثم أتبعه بعبد الله بن المعتم، ثم بشرحبيل بن

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠ .

السمط وهاشم ابن عتبة ، واتبّعهم فنزلوا ببابل وعلى الجمع فيها «الفيروزان» .

وقد قال قادة الفرس : نقاتل المسلمين شيئاً من قتال ثم نفترق ، وكان كل واحد منهم يريد أن يستولي على جزء من فارس ، وكأنهم أرادوا بهذا التجمع وقتال المسلمين أن يعذرهم «يزدجرد» إذا تفرقوا . فاقبتلوا فهزمهم المسلمون في أسرع من لفت الرداء ، فانطلقوا على وجوههم ولم يكن لهم همّة إلا الافتراق ، فخرج الهرمزان نحو الأهواز فأخذها ، وخرج الفيروزان نحو نهاوند فأخذها ، وذهب النخیرجان ومهران الرازي للمدائن (١) .

معركة كوثي :

تقدم زهرة من بابل نحو المدائن ، وكان النخیرجان ومهران قد استخلفا على جنودهما «شهریار» وقد التقى زهرة بهذا الجيش في أكناف «كوثي» فخرج شهریار فنادی : ألا رجل ، ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إلي حتى أنكلّ به! فقال زهرة : لقد أردت أن أبارزك ، فأما إذا سمعت قولك فإني لا أخرج إليك إلا عبداً ، فإن أقمّت له قتلک إن شاء الله ببغیک ، وإن فررت منه فررت من عبد ، وكأيدّه .

ثم أمر أبا نباتة نائل بن جعشم الأعرجي - وكان من شجعان بني تميم- فخرج إليه ، ومع كل واحد منهما الرمح ، وكلاهما وثيق الخلق ، إلا أن الشَّهريار مثل الجمل ، فلما رأى نائلاً ألقى الرمح

(١) تاريخ الطبري ٦٢٠/٣ .

ليعتنقه ، وألقى نائل رمحه ليعتنقه ، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا ، ثم اعتنقا فخرًا عن دابتيهما ، فوقع على نائل كأنه بيت ، فضغطه بفخذه وأخذ الخنجر وأراغ حل أزرار درعه فوقعت إبهامه في فم نائل فحطّم عظمها ، ورأى منه فتورا فثاوره فجلد به الأرض ثم قعد على صدره وأخذ خنجره فكشف درعه عن بطنه فطعنه في بطنه وجنبه حتى مات فأخذ فرسه وسواريه وسلّبه ، وانكشف أصحابه فذهبوا في البلاد .

وأقام زهرة بكوئى حتى قدم عليه سعد ، فأتى به سعدًا ، فقال سعد : عزمت عليك يانائل بن جعشم لما لبست سواريه وقبائه ودرعه ولتركبن برذونه ، وغنمته ذلك كله ، فانطلق فتدّرع سلّبه ، ثم أتاه في سلاحه على دابته ، فقال : اخلع سواريك إلا أن ترى حربا فتلبسهما فكان أول رجل من المسلمين سور بالعراق (١) .

وهكذا رأينا هذا الفارس البطل كيف قضى على خصمه الذي يشبه الجمل من ضخامته ، ولم يشغله كون ذلك الفارسي قد جثم على صدره بجسمه الهائل ولا ما ينتظره من الموت عن أن يغتتم الفرص للإيقاع بخصمه ، فاستفاد من وقوع إبهام ذلك الفارسي في فمه ليحطّم عظمها ويشل حركته ، فكان ذلك التصرف السريع بداية النهاية بالنسبة لخصمه الذي كان واثقًا من تفوقه .

ولقد رأينا في هذا الموطن وفي مواطن كثيرة أن نتائج حروب المبارزة في الفتوحات الإسلامية الأولى تكون دائمًا لصالح المسلمين ، والمبارزة فنّ رفيع يكون له دائمًا مابعده ، ولقد رأينا في هذا الموطن وفي مواطن أخرى مشابهة أن عوامل النصر المادية تكون لصالح

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٢١ - ٦٢٢ .

الأعداء ثم يقيض الله تعالى في الأخير سبباً لصالح المبارز المسلم لايتوقعه الأعداء فتكون النتيجة لصالحه ، وهذا شاهد واضح على أن الله تعالى دائماً مع أوليائه المؤمنين بنصره وتأييده .

معركة مظلم ساباط :

مضى زهرة بن الحوية التميمي من « كوئى » بالمقدمات إلى «بهرسير» شرقي المدائن، وقد تلقاه «شيرزاد» بساباط بالصلح وتأدية الجزاء، فأمضاه إلى سعد بن أبي وقاص .

واصطدم زهرة بكتيبة كسرى التي سميت باسم ابنته « بوران» فهزمهم وقتل جمعهم ، ثم مضى إلى المدائن^(١) .

هذا القائد البطل الذي اختاره سعد لهذه المهمة الشاقة حيث كان يتقدم الجيش فيتحمل هو ومن معه من الأبطال هول المفاجآت وتذليل الصعوبات ، ولاشك أنه كان رجل المواقف حيث استمر مسئولاً عن هذه المهمة من قبل معركة القادسية .

وكان موضع ثقة عمر رضي الله عنه كما جاء في الخطاب الذي وجهه إلى سعد في شأن زهرة حيث قال فيه : أنا أعلم بزهرة منك، وجاء فيه : تَعَمَّدُ إِلَى مِثْلِ زَهْرَةَ وَقَدْ صَلَّى بِمِثْلِ مَا صَلَّى بِهِ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ حَرْبِكَ مَا بَقِيَ تَكْسِرُ قَرْنَهُ وَتَفْسِدُ قَلْبَهُ ! أَمْضِ لَهُ سَلْبَهُ وَفَضِّلْهُ عِنْدَ الْعَطَاءِ بِخَمْسَمِائِهِ .

وكان سعد قد استكثر عليه سلب الجالنوس أحد قادة الفرس وكان زهرة قتله أثناء مطاردته فلول الفرس يوم القادسية، وتعجل زهرة فلبس

(١) تاريخ الطبري ٦٢٢/٣ .

سلب الجالنوس قبل أن يأذن له سعد فغضب سعد ونزعه منه^(١).
وهذا نوع من الخطأ لكنه محتمل من زهرة وقد قدّم هذه
التضحيات الكبيرة، ولذلك لام أمير المؤمنين سعداً على موقفه منه
وأمره بإعادة مأخذ منه .

وهذا دليل من الأدلة الكثيرة التي تدل على براعة عمر رضي الله
عنه وتفوقه في معرفة الرجال .

وقد توجه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى المدائن وجري له
موقف يذكر، وذلك حينما وصل إلى « مظلم سابط » ولعله سُمي
بذلك لكثرة مآبه من الأشجار ، وكان فيه كتائب لكسرى ، وفيه
أُسودٌ قد دُرِبَتْ على الهجوم وكان منها أسد ضخيم يسمى « المُقَرَط »
كان كسرى قد اختاره ، فلما وصل هاشم إلى مظلم سابط انتظر
حتى أتى سعد ببقية الجيش ، فلما وصل سعد وافق وصول ذلك
الأسد فبادر إلى الهجوم على جيش المسلمين ، فنزل إليه هاشم
وقاتله بسيفه حتى قتله ، وسُمي سيفه المثنى لقوته وإنما القوة من
حامله ، وقد أكبر سعد هذا الموقف من ابن أخيه هاشم فكافأه بتقيل
رأسه ، ورأى هاشم ذلك كبيراً من سعد فقبل قدم عمه رضي الله
عنهم أجمعين^(٢) .

وهكذا نرى قادة المسلمين يسارعون إلى ركوب المخاطر ومواجهة
الأهوال ، فقد كان بإمكان هذا القائد المغامر أن يوجه لذلك الأسد
كتيبة ممن هم تحت قيادته ، ولكنه كان من قوم يستعذبون الشدائد

(١) تاريخ الطبري ٥٦٧/٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٦٢٢/٣ .

ويتنافسون في البذل والتضحية فقدّم نفسه فداء لأخوانه المجاهدين
فنصره الله على ذلك الوحش الكاسر .

وهكذا أثبتوا للعالم أنهم لا يقتصرون على منازلة أندادهم من
البشر، بل تجاوزوا ذلك إلى منازلة الوحوش الضارية .

وهذا موقف يُثبت لنا شجاعة هذا القائد إلى جانب ما عُرف عنه
من الرأي والتدبير ، فلا يظنّ ظانّ أن سعداً ولاه النيابة عنه لكونه ابن
أخيه، فقد ولاه قيادة جيش العراق القادم من الشام أبو عبيدة بن
الجراح رضي الله عنه وفي جيشه القعقاع بن عمرو وقيس بن هبيرة ،
وأمثالهما من الأبطال ، وإنما كانوا يؤلّون القيادة من كان يجمع بين
سداد الرأي والشجاعة .

هذا وقد نزل سعد في « مظلم ساباط » بعد أن قدم هاشما ومن
معه نحو بهرّسير وهي الجزء الغربي من المدائن ، ولما نزل سعد ذلك
المكان قرأ قول الله تعالى ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ
الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُلَ أَوْ
لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] .

وإنما تلا هذه الآية لأن في ذلك المكان كتائب لكسرى تُدعى
بوران ، وكانوا يحلفون بالله كل يوم : لا يزول ملك فارس ما عشنا (١) .
وقد هزمهم وفرقهم زهرة بن الحوية كما سبق .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٢٢ .

٢ - التوجه نحو المدائن -

توجه زهرة قائد المقدمات إلى المدائن، والمدائن هي عاصمة دولة الفرس، وتقع شرق نهر دجلة وغربه، فالجزء الذي يقع غربه يسمى «بهرسير» والذي يقع شرقه يسمى «أسبانير» و«طيسفون».

وقد وصل زهرة إلى بهرسير وبدأ حصار المدينة. ثم سار سعد ابن أبي وقاص بالجيش الإسلامي ومعه قائد قواته ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى المدائن الغربية «بهرسير» وفيها ملك الفرس يزْدَجَرْد، فحاصرها المسلمون شهرين، وكان الفرس يخرجون أحياناً لقتال المسلمين ولكنهم لا يثبتون لهم.

وقد أصيب زهرة بن الحوية بسهم، وذلك أنه كان عليه درع مفصومة، ف قيل له: لو أمرت بهذا الفصم فسُرد [يعني حتى لا تبقى فيها فتحة تصل منها السهام] فقال: ولم؟ قالوا: نخاف عليك منه، قال: إني لكريم على الله إن ترك سهم فارسَ الجند كله ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيّ.

وكان كريماً على الله تعالى كما أمّل، فكان أول رجل من المسلمين أصيب يومئذ بسهم، فثبت فيه من ذلك الفصم، فقال بعضهم: انزعوها منه، فقال: دعوني فإن نفسي معي مادامت فيّ لعلني أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة أو خطوة، فمضى نحو العدو فضرب بسيفه شهريار من أهل اصطخر فقتله^(١).

وهذا موقف عظيم من هذا القائد البطل يدل على قوة إيمانه

(١) تاريخ الطبري ٦/٤، وقد جاء لزهرة ذكر بعد فتح المدائن فلعله شفي من تلك الإصابة.

ورغبته الصادقة في الاستشهاد في سبيله ، فإنه لما علم الله تعالى صدق نيته ورغبته في الإصابة قدر إصابته من ذلك المكان .

ثم لننظر إلى هذا البطل الذي خالط حب الجهاد شغاف قلبه ، حيث يعارض في نزع السهم من جسمه خشية أن تخرج روحه قبل أن يضرب في الأعداء ، فهو يريد بقاء نفسه لالمتاع الدنيا الزائل وإنما ليضرب ضربة يثخن بها في العدو ، أو على الأقل أن يتقدم إليهم خطوات لتخرج نفسه وهو أقرب ما يكون إلى العدو .

سبحان الله ما أعظم هؤلاء الرجال ! أما كان يكفي زهرة من النضال والتضحية ما قدمه في مواقفه السابقة الكثيرة ؟ أما كان من حقه - وقد أصيب - أن ينزوي في ناحية بعيدة آمنة ليعالج جرحه ويأخذ قسطاً من الراحة ؟

نعم كان ذلك من حقه ، ولكنه من قوم ينسون أنفسهم في سبيل تقديم الخدمة لأمتهم ، ويضحون بأرواحهم في سبيل الدفاع عن دينهم ونشر دعوتهم ، ويرون أن أسمى أمنية تتطلع إليها نفوسهم أن يُستشهدوا في سبيل الله تعالى .

وقد بقي المسلمون في حصار بهرسير شهرين ، استعملوا خلالها المجانيق ، وقد صنع لهم الفرس الموالون لهم عشرين منجنيقاً شغلوا بها الفرس وأخافوهم (١) .

وفي هذا دلالة على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا لا يهتمون بتحصيل أسباب النصر المادية إذا قدروا عليها ، وأنهم كانوا على ذكر

(١) تاريخ الطبري ٦/٤ .

تام لقول الله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (١) ، إلى جانب تفوقهم في أسباب النصر المعنوية التي انفردوا بأهمها وأبررها وهو الاعتماد على الله تعالى وذكره ودعاؤه .

ومما يُذكر من الأمثلة على معية الله تعالى لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن أنس بن الحليس قال : بينما نحن محاصرون بهرسير بعد زحفهم وهزيمتهم أشرف علينا رسولٌ فقال : إن الملك يقول لكم : هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبَلُنا ولكن ما يليكم من دجلة إلي جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم ! فبدر الناس أبو مَفْزَرُ الأسود ابن قطبة ، وقد أنطقه الله بما لا يدري ماهو ولانحن ، فرجع الرجل ورأيناهم يقطعون إلى المدائن - يعني يعبرون النهر إلى شرق المدائن - فقلنا : يا أبا مَفْزَرٍ ما قلت له ؟ قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما أدري ماهو إلا أن عليَّ سَكِينَةٌ ، و أنا أرجو أن أكون أنطقتُ بالذي هو خير ، وانتاب الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد فجاءنا فقال : يا أبا مَفْزَرٍ ما قلت ؟ فوالله إنهم لَهَرَّابٌ ، فحدثه بمثل حديثه إيانا .

فنادى الناس ثم نهّد بهم ، وإن مَجَانِقِنَا لتخطر عليهم ، فماظهر على المدينة أحد ولاخرج إلينا إلا رجل نادى بالأمان فأمنّاه ، فقال : إن بقي فيها أحد ، فما يمنعكم ؟ [يعني لم يبق فيها أحد] فتسورها الرجال وافتتحناها فما وجدنا فيها شيئاً ولا أحداً ، إلا أسارى أسرناهم خارجاً منها ، فسألناهم وذلك الرجل : لأي شيء هربوا ؟

(١) سورة الأنفال / ٦٠ .

فقالوا : بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح ، فأجبتهموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفريذين بأثرُج كوثي ، فقال الملك : واويله ! ألا إن الملائكة تكلم على ألسنتهم ، ترد علينا وتجيّب عن العرب ، والله لئن لم يكن كذلك ما هذا إلا شيء أُلقي على فيّ هذا الرجل لِنْتَهِي ، فأرّزوا إلى المدينة القصوى (١) .

وهكذا أنطق الله تعالى هذا المسلم العربي بلسان العجم بكلام لا يصدر إلا منهم ، ولا شك أنه كان بلغة فارسية متقنة لا يُشبهه فيها أنها من عربي تعلم الفارسية ، فأيقن الفرس حالاً بأن من نطق بذلك ملكٌ يجيب عن المسلمين أو رجل منهم أُلقي هذا الكلام على لسانه ، فأخلوا مدينتهم الغربية من الرعب وانحازوا إلى مدينتهم الشرقية واحتموا بنهر دجلة الذي كان يجري بغزارة في تلك الأيام .

ولما دخل المسلمون « بَهْرُسِير » - وذلك في جوف الليل - لاح لهم الأبيض [وهو قصر الأكَاسرة] فقال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله ، وتابعوا التكبير حتى أصبحوا (٢) .

وقوله « هذا ما وعد الله ورسوله » يعني يوم حفر الخندق لما بشر النبي ﷺ أصحابه بفتح فارس والروم ووصف لهم قصورها وقد سبق بيان ذلك .

مشورة بين سعد وجنوده في عبور النهر :

هذا ولما علم سعد أن كسرى قد عبر بالسفن إلى المدائن الشرقية وضم السفن كلها إليه وقع في حيرة من أمره ، فالعدو أمامهم وليس

(١) تاريخ الطبري ٧/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٨/٤ .

بينهم إلا النهر ، ولا سبيل إلى عبوره لعدم توفر السفن ، وهو يخشى أن يتحلَّ عدوه فيصعب القضاء عليه ، وقد أتى سعداً بعض أهل فارس فدُلُّوه على مخاضة يمكن اجتيازها مع المخاطرة ، فأبى سعد وتردد عن ذلك ، ثم فاجأهم النهر بمدٍّ عظيم حتى اسودَّ ماء النهر وقذف بالزبد من سرعة جريانه ، وفي أثناء ذلك رأى سعد رؤيا صالحة مفادها أن خيول المسلمين قد عبرت النهر ، فعزم لتأويل رؤياه على العبور ، وجمع الناس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه وهم يخلصون إليكم إذا شاقوا فَيُنَاوِشُونَكُمْ في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تَوْتُوا منه ، قد كفاكموهم أهل الأيام ^(١) ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا ذاتهم ^(٢) ، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد عدوكم بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم .

فقالوا جميعاً : عَزَمَ الله لنا ولك على الرشد فافعل .

وقبل أن أذكر خبر العبور أحب أن أقف أمام هذه العزيمة الصادقة ووقفات :

الأولى : تَذَكُّرُ معية الله جل وعلا لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد ، فهذه الرؤيا الصادقة التي رآها سعد رضي الله عنه من الله جل وعلا لتثبيت قلبه ليُقدم على هذا الأمر المجهول العاقبة .

الثانية : أن الله تعالى يُجري الأمور لصالح المؤمنين ، فالنهر

(١) يعني المجاهدين السابقين .

(٢) يعني مادتهم التي يدافعون عنها .

جرى بكثافة مفاجئة على غير المعتاد ، وظاهر هذا أنه لصالح الفرس ، حيث إنه سيمنع أي محاولة لعبور المسلمين ، ولكن حقيقته أنه لصالح المسلمين ، حيث أعطى ذلك الكفار طمأنينة فلم يستعدوا لقدم المسلمين المفاجيء لهم ، ولم يستطيعوا أن يحملوا معهم كل ما يريدون حمله في حال الفرار ، وإقدام المسلمين على العبور رغم المخاطر ، وتوقع الهلاك في عرف البشر المعتاد أثار فزع الأعداء وخارت عزائمهم .

وهذا يشبه ما جرى يوم بدر من تقليل الكفار في أعين المسلمين وتقليل المسلمين في أعين الكفار ، ليُقدم كل فريق على قتال الآخر ، فيجري بذلك ما قدره الله تعالى من ظهور الحق على الباطل ﴿ وَإِذْ يَرْيَكُمُوهُمْ إِذِ التَّاقَتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلُّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَع الْأُمُورُ ﴾ [الأنفال : ٤٤] .

الثالثة : أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتفاءلون خيراً بالرؤيا من الرجل الصالح ، ويعتبرونها مرجحاً للإقدام على العمل ، وكانوا رضي الله عنهم يحسنون الظن بالله تعالى ، ويعتبرون أن رؤى الخير تثبيت وتأييد منه تعالى .

الرابعة : أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتصفون بالجرأة والإقدام وقد مرت أمثلة كثيرة على جرأتهم في منازلة الأبطال ومجاوله الوحوش الضارية ، وهاهم يقدمون على خوض النهر الجارف بخيولهم ، ومن قبل خاضوا البحر بخيولهم بقيادة العلاء بن الحضرمي ، كما مر معنا سابقاً ، وعلى قدر أهل العزم تكون العزائم .

الخامسة : أن قادة المسلمين في ذلك العهد كانوا يتصفون غالباً

بالحزم واغتنام الفرص لاستنفاد طاقة الجنود وهم في حماسهم وقوة إيمانهم ، فهذا سعد رضي الله عنه يأمر جيشه بأن يعبروا إلى الأعداء بسلاح الإخلاص والتقوى وقد كان مطمئناً إلى مستوى جيشه الإيماني فأقدم على ما أقدم عليه مستعيناً بعُد الله تعالى بذلك المستوى الرفيع .

السادسة : اتصاف الصحابة رضي الله عنهم ومن معهم من التابعين بالطاعة التامة لقادتهم ، وكانوا يعتبرون هذه الطاعة واجباً شرعياً وعملاً صالحاً يتقربون به إلى الله تعالى .

عبور النهر وفتح المدائن :

وقد ندب سعد الناس إلى العبور وقال : مَنْ يبدأ ويحمي لنا الفِراضَ [يعني ساحل النهر الشرقي] حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج ؟ فانتدب له عاصم بن عمرو التميمي وكان من أصحاب البأس والقوة ، وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات ، فأمر عليهم سعد عاصماً ، فسار فيهم حتى وقف على شاطئ دجلة وقال : من ينتدب معي لنحمي الفراض من عدوكم ولنحميكم حتى تعبروا ؟ فانتدب له ستون من أصحاب البأس والنجدة ، ثم اقتحموا دجلة ، واقتحم بقية الستمائة على إثرهم .

وهكذا تكونت من جيش المسلمين فرقة من الفدائيين عددهم ستمائة وقد سميت كتيبة الأهوال ، واستخلص عاصم منهم ستين تحت قيادته ليكونوا مقدمة لهذه الفرقة .

وهذا تخطيط محكم من سعد أولاً ثم من عاصم ، وذلك أن مواجهة الأهوال والمغامرات لا تكون بالعدد الكبير ، وإنما تكون

بأصحاب البأس الشديد والقدرة القتالية العالية وإن كانوا قلائل ،
وذلك أنه إذا انضم لهذه الفرقة من هم أقل كفاءة وشجاعة ثم ارتدوا
عند هجوم الأعداء يسببون انهزام الفرقة كلها .

ومما يميز المسلمين آنذاك أن كل واحد منهم يعرف قدر نفسه
وطاقتها ، فلا يندفع إلا في حدود إمكاناته ، وذلك لأنهم لا يعملون
للمجد الدنيوي ، لأن من كان كذلك قد يغامر بنفسه وهو غير مؤهل
لذلك ، رجاء أن يبقى فيحوز ذلك المجد ، وهو في أدائه هذا العمل
لن ينجح كثيراً لأنه سيبذل جل طاقته في الدفاع عن نفسه ، وهذا
يفوت الغرض الذي يجب أن يغامر من أجله ، وإنما كان أولئك
يعملون للآخرة ، ولرفع مجد الإسلام ، فهم لا يضعون خطواتهم إلا
في موضعها الصحيح ، وقد يغامر بعضهم وهو غير مؤهل حينما
يتعين عليه الإقدام ثم يسهل الله له مخرجاً من الهول الذي غامر
بنفسه فيه كما تقدم .

واقتحم عاصم النهر بالسنتين على الخيول وقد ذكر من طليعتهم
الذين سبقوا إلى الشاطيء الآخر أصم بني ولاد التيمي ، والكليج
الضبي ، وأبو مفرز الأسود بن قطبة ، وشرحيل بن السمط الكندي ،
وحجل العجلي ، ومالك بن كعب الهمداني ، وغلان من بني الحارث
ابن كعب .

فلما رأهم الأعاجم أعدوا لهم فرسانا فالتقوا بهم في النهر قرب
الشاطيء الشرقي ، فقال عاصم : الرماح الرماح ، أشرعوها وتوخوا
العيون ، فالتقوا فاطعنوا ، وتوخي المسلمون عيونهم ، فولوا نحو
الشاطيء ، والمسلمون ينخسون خيولهم بالرماح لتسرع في الهروب ،
فصارت تسرع وأصحابها لا يملكون منعها .

ولحق بهم المسلمون فقتلوا عامتهم ونجا من نجا منهم عورانا ،
ولحق بقية الستمائة بإخوانهم فاستولوا على الشاطيء الشرقي (١) .

هذا ولقد كان بإمكان الفرس الموكّلين بحماية الشاطيء أن يلزموا
مكانهم وأن يكتفوا رماية المسلمين بسهامهم ، وذلك لو تمّ سيعرقل
تقدم المسلمين بعض الوقت ، وستقع فيهم إصابات نظراً لكونهم في
الماء وعدوهم في اليابسة ، والنظر إلى الموضوع من الناحية الحرية
يجعل القدرة المادية إلى جانب الفرس لأن الذي فوق الأرض يستطيع
أن يحدّد الأهداف أكثر من يعوم في الماء ، ولكن الله سبحانه أعمى
بصائر الفرس عن ذلك مع أنهم أهل الحروب الذين ورثوها كابراً عن
كابر ليتم ما أراده الله تعالى من نصره دينه وأوليائه ، حيث قدّم
أعداؤهم طائفة منهم لخوض الجانب الشرقي من النهر وجانب النهر
عادة يكون خفيف الماء ، فالتحموا مع المسلمين ، ولم يستطيعوا الثبات
لهم وأصبحوا عائقاً يحول بين الرماة ومواصلة رمي المسلمين .

جاء في رواية سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : ولما رأى سعد
عاصماً على الفراض [يعني التي في الجانب الشرقي] قد منعها أذن
للناس في الاقتحام وقال : « قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ،
حسبنا الله ونعم الوكيل ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

وهذا القول تعبير من سعد ومن كانوا معه عن مدى تعلقهم بالله
تعالى ، واعتبارهم أن الأمر بيده كله ، وأن تدبير أمور الحرب والسلام
عنده ، فهو الذي يوهن قلوب الأعداء ويعمي بصائرهم عن إدراك
عوامل النصر ، وهو الذي يوفق المسلمين لهذه العوامل وللتفكير

(١) تاريخ الطبري ٩/٤ .

السديد في الخروج من المآرق ، وهو الذي يذل لهم شواحق الجبال المليئة بالجليد ، وأعماق البحار والأنهار التي تقذف بالأمواج والزبد ، وهو الذي يمدّهم بالملائكة عليهم السلام إذا كان الأعداء فوق طاقتهم الكبرى .

فهذا الكلام ليس مجرد كلام يقال باللسان ، كما يقوله بعض المسلمين الذين عُمِرَتْ قلوبهم بالخوف من طغاة البشر وتضخمت في أنظارهم قوتهم وتضاءل في قلوبهم الخوف من الله تعالى ، وتذكر قوته وسعة ملكه ، ثم مع ذلك يرجون من النطق بهذا الكلام أن يظهر مفعوله المدهش في واقع حياتهم .

إن الصحابة رضي الله عنهم قبل أن ينطقوا بهذا الكلام قد جردوا قلوبهم تمامًا من حب غير الله تعالى ومن تعظيم طغاة البشر أو الخوف منهم ، وعمروها بحب الله تعالى والإيمان بعظمته وقوته والخوف منه وحده ، واعتبار أن السماوات والأرض ومافيهن في قبضته تعالى .

فسعد حينما يأمر الجيش الإسلامي بالنطق بهذه الكلمات لايحاول أن ينشئ في قلوبهم عقيدة التوحيد الصافية ، وإنما يذكرهم بما يعبر عن هذه العقيدة ليتذكر منهم من كان شارد الفكر عن ذكر الله القلبي .

ولذلك كانت هذه الكلمات وأمثالها تعطي مفعولها المؤثر ، لأن أولئك الصادقين كانوا يتمتعون بانسجام تام بين أقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم .

فالذي يركع لله تعالى مثلاً قد قام بتعظيمه بفعله لأن الركوع هيئة تعظيم ، ثم قام بتعظيمه بقوله حيث يقول سبحان ربي العظيم فإذا

وافق ذلك حضور القلب واعتقاده بعظمة الله تعالى كان ركوعا كاملا وأدى مفعوله في تقوية الإيمان وتقويم السلوك والظفر بمعية الله تعالى بالنصر والتأييد ، أما إذا كان القلب غافلا والفكر شاردًا فإن ذلك يكون مجرد أقوال وأفعال لاتعطي شيئًا من ثمراتها العظيمة التي شرعت من أجلها .

ولقد كانت أعمال الصحابة وأذكارهم عامرة بالاعتقاد الحي المتجدد مع تجدد الزمن ، فلذلك استقامت حياتهم وظفروا بهذه الانتصارات الباهرة التي أصبحت مضرب الأمثال .

فسعد رضي الله عنه يذكرهم بالاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه وحده ، لأنه جل وعلا هو الذي بيده حسم تلك المعركة وغيرها من أفعال العباد ، ثم يذكرهم بالذكر الذي قاله إبراهيم عليه السلام حينما أُلقيَ في النار ، وقاله رسول الله ﷺ حينما هدده الكفار بجمعهم كما ذكره الله سبحانه بقوله ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١) فإذا كان الكفار يعتدون بجمعهم وقوتهم المادية فإن المسلمين الصادقين يعتدون بالله تعالى وكفى به معينا وناصرًا وهو جل شأنه نعم المعتمد .

ثم يذكرهم بأن التحول من حال الضعف إلى القوة ، ومن العسر والشدة إلى اليسر والسهولة ، ومن انغلاق السبل إلى انفتاحها لا يكون إلا بالله تعالى وحده ، حينما يقول المسلم مع الاعتقاد الجازم «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم» .

قال الرواة في الرواية المذكورة : وتلاحق عظم الجند فركبوا

(١) سورة آل عمران / ١٧٣ .

اللُّجَّةَ ، وإنَّ دجلةَ لَتَرْمِي بِالزَّبَدِ ، وإنها لمسودَّةٌ ، وإن الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقتربوا ، ما يكثرثون كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض^(١) .

وجاء في رواية أبي بكر بن حفص بن عمر : وكان الذي يساير سعداً في الماء سلمان الفارسي ، فعامت بهم الخيل ، وسعد يقول : «حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرنَّ الله وليه ، وليظهرنَّ الله دينه ، وليهزم من الله عدوه ، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات»^(٢) وهذا حُسن ظن بالله تعالى ، وثقة عظيمة بتحقيق وعده أوليائه بالنصر ، ثم إدراك دقيق لعوامل تخلف ذلك حيث اشترط خلُّو الجيش من الظلم والعدوان ومن الذنوب الأخرى التي تغلب الحسنات .

فجميع النصوص التي فيها الوعد بنصر المؤمنين وتمكينهم في الأرض حق لامية فيه ، ويجب على المسلمين أن يؤمنوا بها وبتحقق وقوعها ، ولكن مع تجرد قلوب المسلمين من تعظيم طغاة البشر والخوف منهم ، وتجرد ألسنتهم من الثناء عليهم وتعداد محامدهم ، أو بعبارة أخرى أن يكون من توجهوا لهذا الأمر من الموحدين ، ثم أن ينزهوا أنفسهم عن الظلم والعدوان ، فإن الظالمين قد يُدِيل الله عليهم جبابرة الكفار وإن كانوا أبعد منهم عن الهدى المنحرف بمراحل ، ثم أن ينزعوا أنفسهم عن المعاصي التي تغلب الحسنات كما جاء في تعبير سعد رضي الله عنه ، ومن ذلك الكبائر والإصرار على الذنوب وعدم

(١) تاريخ الطبري ١٠/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ١١-١٢/٤ .

المبالاة بآثارها ، ولم يأت في استثناء سعد ذكر التوحيد ، وإنما ذكر البغي والمعاصي لأن الذين معه كانوا جميعاً من الموحدين .

وهذه المعاني مذكورة في قول الله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

فالعبادة تشمل تطبيق الإسلام في جميع شئون الحياة فكل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى فهو عبادة (٢) .

واجتناب الشرك يعني إخلاء القلب وتجريده من أي اعتقاد يزاحم وجود الإيمان بالله تعالى وذلك كالخضوع للطغاة وتعظيمهم والخوف منهم ، أو التعلق بالدنيا على أنها غاية يعمل من أجلها ، وما يترتب على اعتقاد القلب من الأقوال والأعمال الشركية .

قال الرواة : فقال له سلمان : الإسلام جديد ، ذُلتَ لهم والله البحور كما ذُلتَ لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجنَّ منه أفواجا كما دخلوه أفواجا (٣) .

وقول سلمان رضي الله عنه : الإسلام جديد ، يعني لازال حيا واتباعه أقوياء الإيمان معترفون به ، وقد جعلوه قضيتهم التي من أجلها يحيون ومن أجلها يموتون ، وإليها يدعون وعنهما يدافعون ، أما حينما

(١) سورة النور / ٥٥ .

(٢) ينظر كتاب « شمول العبادة في الإسلام » للمؤلف .

(٣) تاريخ الطبري ١١/٣ - ١٢ .

يتفادى العهد فإنه تأتي أجيال تترث هذا الدين وراثته لا اختياراً ، ولا تجعله القضية التي تأخذ على أفرادها مشاعرهم واهتماماتهم ، بل يجعلون همهم الأكبر هو العلو في الدنيا والتمتع بمتاعها ، ويصبح الدين أمر ثانوياً في قاموس حياتهم ، فعند ذلك يخرجون منه أفواجا كما دخلوه أفواجا .

هذا وقد تم عبور المسلمين جميعاً سالمين لم يُصَب أحد منهم بأذى كما جاء في عدة روايات أخرجه الإمام الطبري ، ولم يقع في النهر منهم إلا رجل واحد كما جاء في رواية أبي عثمان النهدي : أنهم سلموا من عند آخرهم إلا رجلاً من بارق يدعى " غرقدة " زال عن ظهر فرس شقراء كاني أنظر إليها تنفض أعرافها عُرِيّاً والغريق طاف ، فشئى القعقاع ابن عمرو عنان فرسه إليه فأخذ بيده فجره حتى عبر ، فقال البارقي - وكان من أشد الناس - أعجزت الأخوات أن يلدن مثلك ياقعقاع ، وكان للقعقاع فيهم حؤولة^(١) .

وهذه منقبة للقعقاع تضاف إلى مناقبه الكثيرة في الشهامة والبطولة والنجدة .

هذا وقد كان عبور المسلمين مفاجأة للفرس لم يكونوا يتوقعونها ، ولم يحسبوا لها حساباً ، حيث إنَّ قطع النهر وهو بتلك الكثافة والقوة في الجريان لا يمكن أن يتم إلا بالسفن عادة .

ولقد كان بإمكان الفرس لو توقعوا هذا العبور أن يجهزوا جيشاً على السفن يقاتلون به المسلمين بحيث لا يمكنهم من العبور ، ولكن الله تعالى قدر جريان النهر بتلك الكثافة المفاجئة كما جاء في إحدى

(١) تاريخ الطبري ١٢/٤ .

الروايات « وَفَجَّهَمَ الْمُدُّ » وفي عبارة أخرى « وفي سنة جَوْدٍ صيفها . متتابع » .

قدر الله سبحانه ذلك ليطمئن الفرس على عدم وصول المسلمين إليهم لعلمهم بأن فيضان النهر يستمر عدة أشهر حسب المعتاد وليس لدى المسلمين سفن يعبرون عليها .

فكان عبور المسلمين في تلك الحال مفاجأة أذهلت الفرس كما جاء في رواية سيف السابقة : فَفَجَّوْا أَهْلَ فَارَسَ بِأَمْرِ لَمْ يَكُنْ فِي حَسَابِهِمْ ، فَأَجْهَضُوهُمْ وَأَعْجَلُوهُمْ عَنْ جُمْهُورِ أَمْوَالِهِمْ (١) .

وفي رواية أخرى عن أبي مالك حبيب بن صهبان قال : لما عبر المسلمون يوم المدائن دجلة ، فنظروا إليهم وهم يعبرون جعلوا يقولون بالفارسية « ديوان آمد » - قال أبو بكر بن سيف : يعني قد جاء الشيطان- وقالوا بعضهم لبعض : والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن ، فانهزموا (٢) .

وهكذا كانت هذه الكرامة العظيمة التي أكرم الله بها أوليائه المؤمنين من عبور النهر سبباً في فزع الأعداء وهروبهم وجلائهم عن عاصمة ملكهم ، وقد اعتبروا أن عبور المسلمين بدون سفن أمر لايجري من الإنس عادة وإنما يمكن من الجن الذين مكَّتهم الله تعالى من الطيران في الهواء وغير ذلك مما لايلغى الإنس ، فنادى بعضهم بعضاً بالتحريض على الفرار ، لأنه لا طاقة لهم بقتال من جرى منهم هذا الأمر الخارق .

(١) تاريخ الطبري ١٠/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ١٤/٤ .

وبعد ذكر خبر العبور أحبُّ أن أبين أن عبور النهر لم يكن أمراً عادياً كما يصوره بعض الكتاب المعاصرين حيث يرون بأن الخيل تعوم عادة في الماء ، وأنهم استخدموها للعبور كما تُستخدم السفن ، وهذا التصوير مخالف لسياق الخبر ، فلو كان الأمر عادياً لما تحير سعد وتردد في العبور، ولما كان لحيازة الأعداء جميع السفن إلى شاطئهم فائدة تذكر ، ومما يدل على أن العبور كان خارقاً للعادة أن الفرس لما رآوا المسلمين يسرون في النهر فوق ظهور الخيل ذهلوا من هول المفاجأة وقالوا : والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن كما تقدم .

ومما يدل على ذلك أيضاً ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن عمير الصائدي قال : لما أقحم سعد الناس في دجلة اقترنوا فكان سلمان قرين سعد إلى جانبه يسايره في الماء ، وقال سعد : ذلك تقدير العزيز العليم ، والماء يَطْمُو بهم ، وما يزال فرس يستوي قائماً إذا أعيانُ شَرَّ له تلعة فيستريح عليها كأنه على الأرض فلم يكن بالمدائن أعجب من ذلك ، وذلك يوم الماء ، وكان يُدعى يوم الجراثيم - يعني من كثرة مافع للمسلمين من الأرض وسط النهر - .

وأثبت ذلك أيضاً سيف بن عمر فيما يرويه عن شيوخه قالوا : كان يوم ركوب دجلة يُدعى يوم الجراثيم ، لايعيا أحد إلا أنشزت له جرثومة يريح عليها ^(١) .

ومن الغريب أن بعض الكتاب المعاصرين يفسر ذلك بالجُرُ النهرية التي تكون أحياناً في وسط الأنهار ، فهل كان الرواة الأوائل

(١) تاريخ الطبري ١٣/٤ .

من الغباء بحيث لا يعرفون الجزر النهرية ؟ ولو كان هناك جزر لوقف عليها طائفة من الجند على الأقل ولم تكن خاصة بأفراد يصيبهم الإعياء .

ومما يدل أيضاً على كون الأمر خارقاً للعادة ماتقدم من قول سلمان رضي الله عنه عن المسلمين : ذُلت لهم والله البحور . فلو كان الأمر اجتيازاً معتاداً لما كان لهذا القول حاجة .

ومما يدل على ما ذكرنا أيضاً ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف عن قيس بن أبي حازم قال : خضنا دجلة وهي تطفح ، فلما كنا في أكثرها ماء لم يزل فارس واقفا ما يبلغ الماء حزامه (١) .

فإذا كان الماء لا يبلغ أحزمة الخيل مع أنهم في أغزر مكان من دجلة فهل يُتصور أن الخيل كانت تسير على أقدامها في أرض النهر مع ما ذكر الرواة من عمق النهر وغزارته ومَدَّه العظيم في تلك الأيام ؟ أم هل يُتصور أن لدى الخيل قوة على العوم وهي تحمل راكبيها ثم لا يبلغ الماء أحزمتها ؟

إن ذلك كله لا يمكن تصوره ، ولكن المؤمن الذي هو على علم ويقين من أمر الله تعالى يدرك أن قدرته تعالى فوق كل شيء وأنه هو الذي حمل ذلك الجيش الكبير بقدرته تعالى ولطفه ومنّه .

كما يدل عليه أيضاً ما جاء في رواية أبي عثمان النهدي قال : طَبَّقْنَا دَجْلَةَ خَيْلاً وَرَجُلًا وَدَوَابًّا (٢) .

(١) تاريخ الطبري ١٣/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ١٠/٤ .

فهذا يدل على أن العبور غير مقتصر على الخيل ، وأنه كان هناك مشاة يسيرون على أقدامهم ودواب أخرى .

أما الفرس فإنهم لما علموا ببدء عبور المسلمين بعثوا من الفرسان حامية تعوق تقدمهم حتى يتم جلاؤهم .

وقد قاومت هذه الحامية بعض الوقت ، وخرج ملك الفرس يزدجرد إلى حلوان ، وخلت المدائن من الجيش الفارسي إلا حامية في القصر الأبيض .

وقد دخل المسلمون المدائن الغربية فلم يجدوا مقاومة حتى وصلوا إلى القصر الأبيض فامتنعت به حاميته، وقد دعاهم المسلمون إلى الإسلام، وكان الذي تولى ذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث قال لهم : إني منكم في الأصل وأنا أرق لكم، ولكم في ثلاث أدعوكم إليها ما يصلحكم : أن تسلموا فإخواننا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإلا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

ولما كان اليوم الثالث قبل أهل القصر الجزية وخرجوا^(١) .

ولما دخل سعد المدائن فرأى خلوتها وإنتهى إلى إيوان كسرى أقبل يقرأ ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨] (٢) .

مواقف من أمانة المسلمين :

لما فتحت المدائن وجه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فرقا من

(١) تاريخ الطبري ١٤/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ١٦/٤ .

المسلمين لتتبع المنهزمين وجمع الغنائم ، وقد أدوا تلك الغنائم بكل أمانة وإخلاص ، وقد رُويت في ذلك أخبار تدل على مبلغ أمانتهم .

فمن ذلك ما قام به زهرة بن الحوية قائد المقدمة ، حيث خرج يتبع المنهزمين فأدرك بعضهم على جسر النهر وان ، فازدحموا فوق بغل في الماء ، فعجلوا واجتمعوا عليه ، فقال زهرة : إني أقسم بالله إن لهذا البغل لشأنا ، ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشيء بعدما أرادوا تركه ، وترجل زهرة يومئذ حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه بالبغل فاحتملوه فأخرجوه فجأؤوا بما عليه حتى رده إلى الأقباض ما يدرون ما عليه وإذا الذي عليه حلية كسرى ثيابه وخرزاته ووشاحه ، ودرعه التي كان فيها الجوهر ، وكان يجلس فيها للمباهاة^(١) .

وهكذا جمع زهرة في هذا الخبر بين الدهاء حيث أدرك أن وراء اهتمام الفرس بذلك البغل سرّاً ، والشجاعة حيث ترجل عن فرسه وقاتل أولئك القوم ، والأمانة حيث سلّم ما على البغل من غير أن ينظر فيه .

ومنها خبر الكلج الضبيّ وقد خرج للطلب فوجد اثنين من البغالين فقتلتهما بعد أن أفلت من سهامهما ، ثم ساق البغلين حتى سلّمهما لصاحب الأقباض ، وإذا فيهما تاج كسرى ، وفيهما الجوهر وثياب كسرى من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر .

ومنها خبر القعقاع بن عمرو وقد لحق بفارسي يحمي الناس فقتله ، وإذا معه غلافان وعيبتان ، وإذا في أحد الغلافين خمسة

(١) تاريخ الطبري ١٧/٤ ، بتصرف .

أسياف وفي الآخر ستة ، وهي من أسياف الملوك من الفرس ومن الملوك الذين جرت بينهم وبين الفرس حروب وفيها سيف كسرى وسيف هرقل وإذا في العيتين أدرع من أدرع الملوك وفيها درع كسرى ودرع هرقل ، فجاء بها إلى سعد ، فقال : اختر أحد هذه الأسياف فاختر سيف هرقل ، وأعطاه درع بهرام ، وأما سائرهما فنفلها كتيبة الخرساء التي هي بقايا دة القعقاع ، إلا سيف كسرى والنعمان ، فقد رأى أن يعثهما إلى أمير المؤمنين لتسمع بذلك العرب لمعرفة بهم^(١) .

ومنها ما رواه أبو عبيدة العنبري قال : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ، فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأنًا فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيركم ليقرطوني ، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه ، فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس ^(٢) .

ومنها ما روي عن عصمة بن الحارث الضبي قال : خرجت فيمن خرج يطلب ، فأخذت طريقاً مسلوكةً وإذا عليه حمار ، فلما رأيته حثته فلحق بآخر قدامه ، فمالا وحثاً حماريهما ، فأنتهيا إلى جدول قد كُسر جسره فثبتا حتى أتيتهما ، ثم تفرقا ، ورماني أحدهما فألظط به [يعني تبعته] فقتلته وأفلت الآخر ، ورجعت إلى

(١) تاريخ الطبري ١٨/٤ ، بتصرف .

(٢) تاريخ الطبري ١٩/٤ .

الحمارين ، فأُتيت بهما صاحب الأقباض ، فنظر فيما على أحدهما فإذا سَفْطَان في أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضة على ثَفْرَه (١) وَلَبَّيْه الياقوت والزمرد منظوم على الفضة ولجام كذلك ، وفارس من فضة مكلَّل بالجواهر ، وإذا في الآخر ناقة من فضة عليها شليل (٢) من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت ، وإذا عليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر ، كان كسرى يضعهما إلى اسطوائتي التاج (٣) .

وَبَعْدُ فهذه نماذج من وقائع كثيرة تدل على صدق أولئك المجاهدين وأمانتهم ، وتجردهم من مصالحهم الخاصة ، فإن الذي جمعه وأدّوه يعتبر من أعظم عجائب الدنيا ونفائسها ويكفي في تقدير قيمته أنه عنوان حضارة الفرس المادية ، حيث ظل الأكاسرة يجلبونه بالأموال العظيمة ، ويصنعون منه تلك المظاهر الدنيوية الخادعة .

وإنَّ أداء هذه الأموال والنفائس العظيمة مع إمكان إخفاء بعضها دليل على قوة إيمان أولئك المجاهدين ، وإذا كانت هذه حالهم فلا غرابة في محالفة النصر لهم بما يشبه خوارق العادات أو بما هو من خوارقها .

ولقد أثنى على ذلك الجيش أكابر الصحابة رضي الله عنهم ، فمن ذلك قول سعد بن أبي وقاص : والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ماسبق لأهل بدر لقلت على فضل أهل بدر .

(١) هو السير الذي في مؤخرة السرج .

(٢) هو ما يوضع على عجز البعير .

(٣) تاريخ الطبري ١٨/٤ - ١٩ .

وقول جابر بن عبد الله : والله الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة ، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم : طليحة بن خويلد، وعمرو بن معد يكرب ، وقيس بن المكشوح .

وأكبر من ذلك ثناء أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عليهم لما رأى خمس تلك الغنائم كما أخرج الإمام الطبري من طريق سيف عن مخلد ابن قيس العجلي عن أبيه قال : لما قُدم بسيف كسرى على عمر ومنطقته وزبرجده قال : إن قوما أدوا هذا لذووا أمانه ، فقال علي رضي الله عنه : إنك عفت فعت الرعية ، ولو رتعت لرتعت^(١) .

وصول نوادر الغنائم إلى المدينة وموقف لعمر :

هذا ولما قسم سعد غنائم المدائن العظيمة أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بالأخماس وأرسل معها نوادر من لبس كسرى وفرشه وأشياءه الخاصة ، واستأذن الجيش في ذلك فأذنوا وطابت بذلك نفوسهم ، ولما وصل ذلك إلى المدينة ورآه أمير المؤمنين فزع لمنظره وذكر به حقارة الدنيا وحقارة من اغتر بها ، وقد أراد أن يلقي على المسلمين في المدينة درساً عملياً في التزهيد بمظاهر الدنيا ، وقد ذكر خبر ذلك الحافظ ابن كثير من رواية الهيثم بن عدي قال : أخبرنا أسامة بن زيد الليثي قال حدثنا القاسم بن محمد بن أبي بكر قال : بعث سعد بن أبي وقاص أيام القادسية إلى عمر بقباء كسرى وسيفه ومنطقته وسواريه وسراويله وقميصه وتاجه وخفيه - وقد كانت كما في روايات أخرى من مواد غالية الثمن كالحرير والذهب والجوهر - قال : فنظر عمر في وجوه

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٩ - ٢٠ ، البداية والنهاية ٧/ ٦٧ .

القوم ، وكان أجسمهم وأبدنهم قامة سراقه بن مالك بن جعثم ، فقال: يَاسْرَاقَ قم فالبس ، قال سراقه: فطمعت فيه ، فقممت فلبست فقال: أدبر فأدبرت ، ثم قال : أقبل فأقبلت ، ثم قال بخ بخ ، أعيرابي من بني مدلج عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه ، رب يوم ياسراق بن مالك لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى كان شرفاً لك ولقومك، انزع ، فنزعت ، فقال : اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني ، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني ، وأعطيته فأعوذ بك أن تكون أعطيته لتمكر بي ، ثم بكى حتى رحمه من كان عنده ، ثم قال لعبد الرحمن بن عوف: أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسي (١) .

وهكذا جَسَمَ عمر رضي الله عنه مظاهر الدنيا الخلابية الخداعة، حينما ألبس سراقه متاع كسرى ، وكأنه يقول : انظروا إلى قمة مظاهر الدنيا التي بُذلت فيها آلاف الدنانير ، ثم ما الذي أغتته عن صاحبها؟ فما هو في حياته الدنيا يُطرد من كل بلد ، ويعيش في رعب وخوف، ثم هو في الآخرة من أصحاب الجحيم ، فهل جلبت له هذه المظاهر السعادة في الدنيا والآخرة ؟ وهل دفعت عنه ما يكره في الدارين ؟ الواقع أنها تهاوت كما تهاوى الخرائب ، وسقط معها كل من انخدع بها .

ثم يشير عمر رضي الله عنه بقوله « رب يوم ياسراق بن مالك لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى كان شرفاً لك

(١) البداية والنهاية ٦٨/٧ .

ولقومك».. يشير إلى أن العرب في جاهليتهم ليسوا أحسن حالا من غيرهم في الاغترار بمظاهر الدنيا ، فقد كانوا يعظمون أهل هذه المظاهر ، فلو غنم هذه المغانم أهل الجاهلية ولبسوها لاعتبروا ذلك شرفا لهم ، أما وقد غنمها المسلمون فإنهم لن يستحلوا لبسها ، ولن يروها شيئا يذكر ، لأن الله سبحانه أعزهم بالإسلام فلا عزة لهم بغيره .

وبعد أن تم ما أراده عمر من تحقير مظاهر الدنيا مرت عليه لحظات من محاسبة النفس غلب عليه فيها جانب الخوف من الله عز وجل ، فقارن بين حياته وحياة خليليه السابقين رسول الله ﷺ وخليفته أبي بكر رضي الله عنه ، فرأى أنهما قد سلما من رؤية هذه المظاهر فخشي أن يكون قد ابتلي بها استدراجاً ، فسَخَتْ عيناه بدموع هملت من سحب الخشية ، وتحدّرت من منابع الحزن ، حتى أشفق عليه أصحابه مما يروونه يعاني من الحزن المضني والتأثر العميق ، وماذاك إلا لقوة معرفته بالله تعالى ، ومن كان بالله أعرف كان من الله أخوف .

وهكذا فُتحت مدينة « المدائن » عاصمة دولة الفرس التي كانت تملك أكثر من نصف الأرض الشرقي .

فيا تُرى لو كان الفاتحون من غير المسلمين هل يتركون تلك المدينة وقصرها الأبيض المشهور وإيوان كسرى ؟!

إن البدهي في منطق العقول المعتادة أن ينتقل حاكم المسلمين وأميرهم من المدينة المنورة ذات المباني الطينية والخشونة في العيش ليعيش في قصور الأكاسرة ، وليجعل من حاضرة ملكهم التي تم بناؤها بجهود ضخمة عاصمة لدولة الإسلام .

وإذا لم يتم ذلك فلا أقل من أن يتربع على عرش تلك المدينة
والي العراق والمشرق .

ولكن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لم يفعل ذلك، ولم يفعله
أيضاوالي العراق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . . ذلك لأنهما
من قوم زكى الله تعالى قلوبهم وطهر سرائرهم ، فطمحت أنظارهم
وأفكارهم نحو قصور الجنة ونعيمها الدائم . . فرأوا أن أيّ تنعم في
الدنيا ينقص من رفعة درجاتهم في الجنة .

* * *

مواقف وعبد
فى
فتوح المشرق

١ - موقعة جلولاء -

ذكر الإمام محمد بن جرير الطبري عدة روايات عن موقعة جلولاء من طريق سيف بن عمر عن شيوخه وخلاصتها أن الأعاجم لما هُزموا مرات عديدة في المعارك التي خاضوها مع المسلمين والتي كان آخرها معركة القادسية وفتح المدائن، اجتمعوا على مفترق الطرق إلى مدائنهم في جلولاء فتذا مروا وقالوا : إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فإذا كانت لنا فهو الذي نريد وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبلىنا عذرا ، واجتمعوا على قيادة مهرا ن الرازي ، وحفروا خندقاً حول مدينتهم ، وأحاطوا به الحسك من الخشب إلا الطرق التي يعبرون منها .

وقد كتب سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر يخبره بذلك ، فكتب إلى سعد يأمر ببعث هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى جلولاء في اثني عشر ألفا ، وأن يجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي وعلى ميمنته مسعر بن مالك ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك ابن عتبة وعلى ساقته عمرو بن مرة الجهني .

وسار إليهم هاشم بجيشه فحاصرهم وطاولهم أهل فارس فكانوا لا يخرجون لهم إلا إذا أرادوا ، وزاحفهم المسلمون ثمانين رجلا ، كل ذلك يعطي الله المسلمين عليهم الظفر ، وغلبوا المشركين على حسك الخشب التي اتخذوها لإعاقة المسلمين فاتخذ الأعداء حسك الحديد .

وجعل هاشم يقوم في الناس ويقول : إن هذا المنزل منزل له

مابعده وجعل سعد يمدّه بالفرسان ، حتى إذا طال الأمر وضاق الأعداء من صبر المسلمين اهتموا بهم فخرجوا لقتالهم ، فقام هاشم في الناس فقال : أبلوا الله بلاء حسناً يتم لكم عليه الأجر والمغنم واعملوا لله ، فالتقوا فاقتتلوا ، وبعث الله عليهم ريحاً أظلمت عليهم البلاد فلم يستطيعوا إلا المحاجزة ، فتهافت فرسانهم في الخندق فلم يجدوا بداً من أن يردموا الخندق مما يليهم لتصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم .

أقول : وهذا مثل من أمثلة كثيرة يقيض الله فيها أسباباً ترجح كفة المسلمين مما يدل على قرب الله تعالى من أوليائه وإمدادهم بالنصر والتأييد كلما ادلهمت بهم الخطوب وتوالت عليهم المحن .

فالمسلم مأمور بأن يستمر في العمل بالأسباب المشروعة التي سخرها الله سبحانه له وجعلها مجالاً لجريان أقداره على ما يشاء ويقدر جل وعلا ، مع شعوره الدائم بمعية الله له بالعلم والنصر والتأييد وظهور آثار عبوديته لربه جل وعلا بالخضوع له والدعاء والعبادة .

جاء في الرواية المذكورة « فلما بلغ المسلمين ما قام به الأعداء من ردم الخندق قالوا : أننهض إليهم ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه ؟ فلما نهض المسلمون لقتالهم خرجوا فرموا حول الخندق مما يلي المسلمين بحسك الحديد لكيلا تقدم عليهم الخيل وتركوا مكاناً يخرجون منه على المسلمين فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله إلا ليلة الهرير وهي من ليالي القادسية إلا أنه كان أقصر وأعجل » .

وهذا مثل من حزم المسلمين آنذاك واهتبالهم الفرص المناسبة

للكفاية بالأعداء بالرغم مما أصاب المسلمين من الإنهاك المتواصل ، وبذل ما في الوسع من الطاقة والقوة ، وهو دليل على قوتهم في المصابرة على القتال المستمر ، وقد نجحوا أكثر من مرة بسبب ذلك في الظفر على الأعداء ، وكانت اللحظات الحاسمة تأتي بتفوق المسلمين في المصابرة بعد ملاحظة قوة أملهم بالله تعالى .

قال : « وانتهى القعقاع بن عمرو في الوجه الذي زاحف فيه إلى باب خندقهم فأخذ به وأمر منادياً فنادى : يامعشر المسلمين هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فأقبلوا إليه ولا يمنعنكم من بينكم وبينه من دخوله - وإنما أمر بذلك ليقوي المسلمين به - فحمل المسلمون ولا يشكون في أن هاشماً فيه فلم يحم لهم شيء حتى انتهوا إلى باب الخندق فإذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذ به وأخذ المشركون في هزيمة يمنة ويسرة عن المجال الذي بحيال خندقهم ، فهلكوا فيما أعدوا للمسلمين فعُقرت دوابهم [يعني بسبب حسك الحديد التي أعدوها للمسلمين] وعادوا رجالة ، وأتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا من لا يُعدّ ، وقتل الله منهم يومئذ مائة ألف ، فجَلَّت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه ، فسميت جلولاء بما جللها من قتلاهم ، فهو جلولاء الواقعة » .

وهكذا تمت اللحظات الحاسمة في هذه المعركة على يدي القعقاع ابن عمرو كما تمت بذلك معركة القادسية وغيرها ، فله دوره من بطل دوخ أعداء الإسلام بشجاعته النادرة ومصابرته المضنية وتخطيطه الحربي المدهش ، وذلك يدل على قوة إيمانه بالله تعالى وعظيم ثقته بنصره وتأنيده .

ومن عجائب هذه المعركة أن المسلمين تفوقوا على أعدائهم وكان النصر حليفهم في جميع اللقاءات بينهم ، حتى كانت النهاية لصالحهم ، مع أن الأعداء يفوقونهم كثيرا في الاستعداد الحربي ، فقد حفروا خندقًا عميقًا حول مدينتهم لا يمكن اجتيازه ، فضمنوا بذلك حصنًا منيعًا يحميهم ، ثم وضعوا عوائق من الخشب تصدُّ خيول المسلمين عن التقدم ، ولما غلبهم المسلمون على هذه العوائق فأبطلوا مفعولها وضع لهم الأعداء حسك الحديد دونها ، واستطاع المسلمون بتوفيق الله تعالى ، ثم بمهارتهم في التخطيط الحربي أن يتفادوا قطع الحديد تلك ، وركزوا هجومهم على المجال الخالي الذي تركه الأعداء لهم ليخرجوا منه إلى المسلمين ، كما مر في صنع القعقاع بن عمرو .

ولما كان الأعداء قد خرجوا في ذلك اليوم الذي حُسمت فيه المعركة لقتال المسلمين فإن القعقاع بن عمرو ومن معه من الأبطال قد غلبوا على المجال الذي يستطيعون أن يعبروا منه إلى مدينتهم ، واضطروهم بالضغط الشديد إلى أن يذهبوا يمينه ويسرة عن ذلك المجال ، فتورطوا بحسك الحديد التي أعدوها لخيول المسلمين ، فوقعت بها خيولهم ، واضطروا إلى ترك الخيول وأن يقاتلوا مشاة على غير نظام ، وإذا كان الأعداء لم يثبتوا للمسلمين وهم على خيولهم في كل الحروب التي خاضوها معهم فكيف يثبتون لهم وهم مشاة ؟ ولذلك كانت تلك نهايتهم ، وعاد عليهم سلاحهم الذي وضعوه لتعويق المسلمين فتورطوا به ، وكسب المسلمون المعركة .

هذا وقد ذكر الطبري أن سعد بن أبي وقاص بعث زياد بن أبيه

بالحسابات المالية إلى أمير المؤمنين ، وكان زياد هو الذي يكتب للناس ويدوّنهم فلما قدم على عمر كلمه فيما جاء له ووصف له فقال عمر : هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به ؟ فقال والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك ، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك ! فقام في الناس بما أصابوا وبما صنعوا ، وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد ، فقال عمر : هذا الخطيب المصقع ، فقال زياد : إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا^(١) .

وقول زياد لعمر « والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك » لا يريد زياد هيبة الضعفاء المغلوبين على أمرهم من الجبارين الطغاة ، ولكنها هيبة الأقوياء الأحرار من العظماء الذي وقرت محبتهم المشوبة بالإجلال والإكبار في نفوس المؤمنين .

وهو شاهد حي على ما يَمُنُّ الله به على أقوياء الإيمان من تسخير القلوب لهم وملئها بالهيبة منهم ، فكلما عظم الله تعالى في قلب المؤمن عظمت مكانته بين الناس ، وإذا كان حاكما فإنه لا يحتاج إلى كثير من البشر لحماية أمنه وأمن دولته ، لأنه قد أمن جانب المؤمنين الذين يعتبرون طاعته طاعة لله تعالى وإكرامه إجلالا له جل وعلا كما جاء في قول رسول الله ﷺ « إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط » أخرجه الإمام أبو داود بإسناد حسن^(٢) .

(١) تاريخ الطبري ٢٩-٢٤/٤ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب / ٢٠ .

وهكذا انتهت معركة جلولاء بانتصار المسلمين ، وقد غنموا فيها
مغانم عظيمة أرسلوا بأخماسها إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه
فقال حين رآه : والله لا يُجَنِّه سقْف بيت حتى أقسمه فبات
عبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه في صحن المسجد ،
فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه جلابيه - وهي الأنطاع - فلما
نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى ، فقال له عبد الرحمن :
ما يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا لموطن شكر ! فقال عمر :
والله ما ذاك يبكيك ، والله ما أعطى الله هذا قومًا إلا تحاسدوا
وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا أُلقيَ بأسهم بينهم^(١) .

وهكذا فزع عمر رضي الله عنه حينما رأى كثرة ذلك المال وخشي
من مسئوليته فأقسم أن لا يستره سقْف بيت حتى يقسمه ، ثم بكى لما
رأى تنوع مظاهر الدنيا في ذلك المال ، وخشى على الأمة الإسلامية
من حياة الترف وما ينتج عنها من تباغض وتحاسد ، وما يعقب ذلك من
شقاق وعداء .

وهذا لون من حساسية الإيمان المرهفة ، حيث يدرك المؤمن
الراسخ من نتائج الأمور المستقبلية ما لا يخطر على بال غيره ، فيحمله
الإشفاق على المؤمنين من أن يكدر صفو علاقاتهم الإيمانية شائبة من
شوائب الدنيا التي تباعد بين القلوب . . يحمله ذلك على التأثير
العميق الذي يصل إلى تحدر دموعه أمام الناس .

وإنه لعجيب أن تهطل الدموع من عيني رجل بلغ من القوة حدًا

(١) تاريخ الطبري ٣٠ / ٤ .

يخشاه أهل الأرض قاطبة مسلمهم وكافرهم ومنافقهم ، ولكنها
الرحمة التي حلّى بها الله جل وعلا قلوب المؤمنين . فأصبحوا كما
وصفهم الله سبحانه بقوله ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى
الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي
الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ
الزَّרَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩]

وإن أغزر الأنهار مياهاً لتتحدّر من شواحق الجبال الرواسي .

* * *

٢ - غزوة فارس من جهة البحرين -

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أقر العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه على إمرة البحرين ، وكان قد فتحها وقضى على المرتدين فيها في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، ونهاه عمر عن غزو فارس من البحر ، خوفاً من تعريض المسلمين للهلاك والحصار من الأعداء ، ولكن العلاء خالف أمر عمر ، فندب أهل البحرين لغزوة فارس من البحر وفرقهم أجناداً ، على أحدها الجارود بن المُعلَّى ، وعلى الآخر السوَّار بن همام وعلى الآخر خُلَيْد بن المنذر بن ساوى ، وخليد على جماعة الناس ، فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس ، فخرجوا في "اصطخر" ، ويازائهم أهل فارس ، وعلى أهل فارس « الهربذ » اجتمعوا عليه ^(١) ، فحالوا بين المسلمين وسفنهم ، فقام خليد في الناس فقال : أما بعد فإن الله إذا قضى أمراً جرت به المقادير حتى تصيبه ، وإن هؤلاء القوم لم يزيّدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم ، وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب ، فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، فأجابوه إلى ذلك فصلوا الظهر ، ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً في موضع من الأرض يُدعى « طاوس » فقتل أهل فارس مقتلة لم يقتلوا مثلها قبلها . ثم خرج المسلمون يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً ، ثم وجدوا « شهرک » أحد قادة الفرس

(١) يعني على توليته القيادة .

قد أخذ على المسلمين الطرق ، فعسكروا وامتنعوا في مكان حصرهم .
ولما بلغ عمر الذي صنع العلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر
أُلقي في رُوعه نَحْوٌ من الذي كان ، فاشتد غضبه على العلاء ،
وكتب إليه يعزله وتوعده ، وقال : الحق بسعد بن أبي وقاص فيمن
قَبَلَكَ ، فخرج بمن معه نحو سعد .

وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان : إن العلاء بن الحضرمي حمل
جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصاني ، وأظنه لم يرد الله
بذلك فخشيت عليهم إن لا ينصروا أن يغلبوا وينشَبُوا ، فاندب إليهم
الناس واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا .

فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر ، فانتدب اثنا عشر ألفاً
بقيادة أبي سبرة بن أبي رهم أحد بني مالك بن حسل بن عامر بن
لُؤَيٍّ ، ومعه عدد من الوجهاء والشجعان ، فسار بالناس من طريق
الساحل ولم يعرض له أحد ، حتى التقوا بخليد وأصحابه عقب
معركتهم مع الأعداء وقد أُخِدتْ عليهم الطرق .

وكان أهل اصطخر قد استصرخوا عليهم أهل فارس كلهم لما
حصروهم فضربوا إليهم من كل أنحاء فارس ، فوافت أمداد فارس
وقد وصل مدد المسلمين ، فالتقوا مع عدوهم فاقتتلوا ففتح الله على
المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم من شأؤوا ، ثم عادوا
جميعاً إلى البصرة وكان عتبة أوصاهم بعدم الإقامة (١) .

ومن عرض هذا الخبر تبين أن الذي كان يخشاه عمر رضي الله

(١) تاريخ الطبري ٧٩/٤ - ٨٢ .

عنه على المسلمين من الغزو من البحر قد حدث ، حيث لم يصل المسلمون في فتوحهم من جهة البر إلى ذلك المكان ، فأنحصر الغزاة المسلمون في بلاد عدوهم وسدوا عليهم الطرق المؤدية إلى اخوانهم المسلمين في العراق ، وبدؤوا يخططون للقضاء عليهم ، فندبوا لهم من جيوش فارس مالا قبل لهم به ، لولا أن قيض الله تعالى لهم أمير المؤمنين عمر فأدرك بإحساسه المرهف وبقظته الدائمة - بعد إلهام الله إياه - ماسيؤول إليه أمر ذلك الجيش المحصور ، فندب أهل البصرة لإنقاذه ، فكانت رحمة الله بهم ، حيث تم إنقاذهم وهزيمة عدوهم .

هذا وإننا حينما نتذكر أسباب النصر الحقيقية التي بينها الله سبحانه ورسوله ﷺ نجد أن سبباً من أهم تلك الأسباب قد تخلف حينما عزم العلاء على الغزو من البحر ، ذلكم هو طاعة القائد ، وقد كان أمير المؤمنين عمر هو القائد الأعلى للجهاد آنذاك ، وكان قد نهى ابن الحضرمي عن الغزو من البحر ، فلم يلتزم بذلك وأقدم على ماأقدم عليه ، فكانت النتيجة مصيبة كبرى على المسلمين لولا ماقدره الله تعالى من عملية الإنقاذ المذكورة .

هذا إضافة إلى ما نتج عن ذلك من عزل العلاء بن الحضرمي عن البحرين وتعرضه لغضب أمير المؤمنين ووعيده .

ولم يشفع للعلاء أنه هو الذي قضى على المرتدين في البحرين وأنه أميرها الذي استقرت به أمورها . ولا أنه صاحب الكرامات المشهورة ، فهو الذي بدعائه والصالحين معه نبع الماء من الرمال ، وهو الذي بدعائه والصالحين معه سار بجيشه على البحر بدون مراكب . .

كل ذلك لم يشفع له ، لأن منهج عمر رضي الله عنه - وهو المنهج الإسلامي- أن المحسن يكافأ على إحسانه ويحاسب على إساءته ، فإذا أحسن المسئول كان موضع التقدير والثناء ، وإذا أخطأ فلا يجوز السكوت على خطئه مجاملة له ، لأن ذلك قد يجرّئه على تكرار الخطأ ، وقد يجريء غيره على ارتكاب مثل ذلك .

ومن موقف عمر هذا يتبين لنا أن الكرامات لم يكن لها كبير أثر في حياة الصحابة رضي الله عنهم ، وأنه لم يكن يتم بموجبها تقييم الرجال ، وإنما كانوا يقيمون بأعمالهم الصالحة ، وكانوا يفهمون أن تلك الكرامات إنما هي مدد من الله تعالى لأوليائه عند احتياجهم لذلك ، أو سبب من الأسباب الظاهرة لانتصار الإسلام ، ولاشك أن من جرت على يديه يوصف بالصلاح ، ولكن المعول عليه في تقدير كفاءته والثقة به وإسناد المهمات إليه هو مايقدم من عمل صالح .

هذا وينبغي أن نشير إلى موقف من مواقف الزهد في الجاه ، فقد جاء في الخبر المذكور أن عتبة بن غزوان لما أحرز الأهواز وأوطأ فارس استأذن أمير المؤمنين عمر في الحج فأذن له ، فلما قضى حجه استعفاه ، فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله ، فدعا الله ثم انصرف ، فمات في بطن نخلة ، فدفن ، وبلغ عمر فمر به زائراً لقبره وقال : أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم ، وأثنى عليه بفضله (١) .

هذا وإن الزهد في الجاه دليل على أن الزاهد فيه يفكر في هدف

(١) تاريخ الطبري ٨٢/٤ .

هو أعلى من المتعة بحصوله ، ويخشى أن يؤثر طلبه على ذلك الهدف الأعلى ، وإنما هذا الهدف الأعلى هو الرفعة في الحياة الآخرة ، ولكن إذا كان الإنسان مطمئناً من كفاءته في العمل ومقدرته على الحفاظ على رضوان الله تعالى وإن غضب عليه الناس ، فإنه يعمل في خدمة المسلمين يقدم لنفسه عملاً صالحاً يرفع ذكره ومنزله يوم القيامة ، فالمؤمن الحق هو الذي يجعل رضوان الله تعالى والدار الآخرة نصب عينيه دائماً ، ثم يوازن بين بقائه في العمل أو طلب الإعفاء منه من منطلق الحصول على القدر الأعلى من هذا الهدف السامي .



٣ - فتح رامهرمز

كان الفرس قد بدؤوا بالتجمع مرة أخرى بتحريض من ملكهم يَزْدَجَرْد ، فاجتمعوا في رامهرمز بقيادة الهرمزان .

وقد كان سعد بن أبي وقاص أخبر أمير المؤمنين بخبر اجتماعهم فأمره بأن يجهز إليهم جيشاً من أهل الكوفة بقيادة النعمان بن مقرن ، وأمر أبا موسى الأشعري بأن يجهز جيشاً من البصرة بقيادة سهل بن عدي ، وإذا اجتمع الجيشان فعليهم جميعاً أبو سبرة بن أبي رهم ، وكل من آتاه فهو مدد له .

وخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة ، ثم سار نحو "الهرمزان" - والهرمزان يومئذ برامهرمز - ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدة ورجا أن يقطعه ، وقد طمع الهرمزان في نصر أهل فارس ، وقد أقبلوا نحوه ، ونزلت أوائل أمدادهم بتستر ، فالتقى النعمان والهرمزان بأربك ، فاقتلوا قتالاً شديداً ، ثم إن الله عز وجل هزم الهرمزان للنعمان ، وأخلى رامهرمز ولحق بتستر .

أما سهل بن عدي فإنه سار بأهل البصرة يريد رامهرمز ، فأتتهم المعركة وهم بسوق الأهواز ، وأتاهم الخبر بأن الهرمزان قد لحق بتستر ، فمالوا إلى تستر ، ومال إليها النعمان بأهل الكوفة (١) .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٨٣/٤ - ٨٤ .

٤ - فتح تَستَر -

وصل جيش النعمان بن مقرن وجيش سهل بن عدي إلى تستر ، واجتمعا تحت قيادة أبي سبرة بن أبي رُهم ، وقد استمد أبو سبرة أمير المؤمنين فأمدهم بأبي موسى الأشعري فأصبح قائد جيش البصرة ، وظل أبو سبرة قائد الجيش كله .

وقد بقي المسلمون في حصار تستر عدة شهور قابلوا فيها جيش الأعداء في ثمانين معركة .

وظهرت بطولة الأبطال بالمبارزة فاشتهر منهم عدد بقتل مائة مبارز سوى من قتلوا في أثناء المعارك ، وقد ذُكر منهم : البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وكعب بن سور وأبو تميمة وهم من أهل البصرة ، وفي الكوفيين مثل ذلك ذُكر منهم حبيب بن قررة وربيعي بن عامر ، وعامر بن عبد الله الأسود .

هذا وإن إقدام الأعداء على الدفع بهذا العدد الكبير من المبارزين دليل واضح على استماتتهم في تلك المعارك واعتبارها مُقررةً لمصير دولتهم ، ولكنهم قابلوا بحماسهم وتفانيهم جبلاً راسيات تتحطم أمامها جميع التيارات الجارفة .

وإنه لشرف عظيم ينصرُ به هؤلاء الأبطال دينهم ، ويتوجون به أمتهم ، ويرهبون به أعداءهم .

لقد حاول الأعداء بهذه السلسلة من المبارزات أن يستعيدوا شيئاً من معنويتهم المحطمة وكرامتهم التي مرَّغت في التراب ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل أمام قوة المسلمين العظيمة ومعنويتهم العالية .

وإن استمرار هؤلاء الأبطال في المصارعة مع انتصاراتهم المتكررة دليل على أنهم لم يكونوا يقاتلون ولا يغامرون من أجل الدنيا ، فإن شرف الدنيا يكفي في نياله قليل من هذه التضحيات ، ثم يبقى طالب ذلك على نفسه ليتمتع بذلك الشرف ، أما أن يستمر في المغامرات والتضحيات فإنه إنما يريد شرف الآخرة ، لأنه كلما ازداد إقداماً وبذلاً تضاعف حصوله على ذلك الشرف .

فلما كان آخر لقاء بين المسلمين وأعدائهم ، واشتد القتال نادى المسلمون البراء بن مالك وقالوا : يا براء ، أقسم على ربك ليهزمهم لنا ، فقال : اللهم اهزمهم لنا ، واستشهدني .

ونقف قليلاً مع هذا البطل المغوار ، المتواري عن الأنظار ، ونرجع قليلاً إلى الوراء حيث علّق النبي ﷺ على صدره وساماً عظيماً من أوسمة الشرف وذلك بقوله « كَمْ مِنْ أَشْعَثِ أَغْبَرِ ذِي طَمْرٍ مِنْ لَأْيُؤْبَهُ لَهُ ، لو أقسم على الله لأبره » ، منهم البراء بن مالك « أخرجه الإمام الترمذي وحسنه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (١) .

وقد كان البراء مستجاب الدعوة ، وعرف الناس عنه ذلك بموجب هذا الحديث ولذلك طلبوا منه في هذه المعركة أن يدعو الله ليهزم عدوهم .

ومع هذا الشناء العظيم من رسول الله ﷺ على البراء فإنه لم يبطر ولم يتكبر ، بل ظل الرجل المتواضع الذي يقتحم الأهوال ، ويأتي بأعظم النتائج ، من غير أن تكون له إمرة أو قيادة .

(١) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ١٠ / ٣٥٦ .

وإذا كان قد سأل الله تعالى النصر للمسلمين وهو عز لهم وللإسلام فإنه لم يُغفل نفسه أن يسأل الله تعالى أغلى ما يتمناه المؤمن القوي الإيمان، حيث سأل الله تعالى الشهادة .

وقد استجاب الله تعالى دعاءه فهزم الأعداء ، ورزقه الشهادة في ذلك اليوم .

وإنه لموطن كريم يتجلى فيه قرب الله جل وعلا من أوليائه المتقين حيث يجيب سؤلهم ، ويحقق لهم أمانهم العُليا ، لأنه اصطفاهم فمنحهم القوة العالية التي بها خدموا دينه وأقاموا دولته في الأرض ، حتى إذا أحبوا لقاءه منَّ عليهم بأشرف نهاية ليصلوا إلى أسعد غاية .

جاء في الرواية المذكورة أن المسلمين هزموا أعداءهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم وأنه لما ضاق الأمر على الفرس واشتد عليهم الحصار اتصل اثنان منهم في جهتين مختلفتين بالمسلمين وأخبراهم بأن فتح المدينة يكون من مخرج الماء ، وقد وصل الخبر إلى النعمان بن مقرن، فندب أصحابه إلى ذلك المكان ، ووصل الخبر إلى أبي موسى الأشعري فندب أصحابه كذلك ، فالتقى الأبطال من أهل الكوفة والبصرة في ذلك المكان ليلا ، ودخلوا منه سباحة إلى المدينة ، فكبروا وكبر من وقفوا في الخارج ، وفتحوا الأبواب فأبادوا من حولها بعد شيء من المقاومة (١) .

لقد انتدب الأبطال لمغامرة الدخول من مخرج الماء وهم يتسابقون إلى الموت ، فإما الظفر وإما الشهادة .

(١) تاريخ الطبري ٨٤/٤ - ٨٥ .

وإن دخول هؤلاء الأبطال وهم يسبحون في الماء يعرضهم لنار العدو، ولكنهم قوم ألفوا حياة الأهوال ، وأصبحت الشهادة أمنية غالية لهم ، فهم يتعرضون لمواطنها .

والظاهر أن الأعداء لم يتوقعوا من المسلمين الجرأة على اقتحام مدينتهم من ذلك المدخل الخطير ، لأن الإقدام على ذلك أشبه بالانتحار، فكان دخول المسلمين منه مفاجأة مذهلة لهم أطارت صوابهم ومزقتهم شر ممزق .

ولقد كان في هذه المغامرة العظيمة نهاية بطلين من أعظم أبطال المسلمين، وهما البراء بن مالك ومجزأة بن ثور حيث رماهما الهرمزان، ولكن هذه النهاية جاءت بعد انتصار المسلمين ، وبعد أن قدّم كل واحد منهما سجلاً حافلاً من التضحيات والنكاية بالأعداء ، حيث قتل كل واحد منهما في تلك الأيام مائة من الأعداء مبارزة مع من قتلا أثناء الالتحام كما سبق .

وهكذا قدم أولئك الأبطال تضحيات ضخمة في تلك المعارك التي استمرت عدة شهور ، وقدموا في غيرها الكثير ، وأصبح المسلمون يتفيتون ظلالها ويعيشون ثمراتها قروناً عديدة ، وهم ملوك الدنيا وقادة الأمم .

وإن هذا الملك العريض الضخم الذي لم يتكون إلا بالتضحيات والدماء ، لا يجوز أبداً أن يفرط فيه الوارثون ، فيضعفوا عن حمايته، ويستسلموا لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر .

أما هرمزان قائد الفرس فإنه لجأ إلى القلعة ، وأطاف به المسلمون

الذين دخلوا من مخرج الماء ، فلما عاينوه وأقبلوا قبلكه قال لهم :
ما شئتم ، قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم ، ومعى في جُعبتي مائة
نُشابة ، ووالله ماتصلون إليَّ مادام بمعى نشابة ، وما يقع لي سهم ،
وما خير إساري إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ! قالوا : فتريد
ماذا؟ قال : أن أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي
ما شاء ، قالوا : فلك ذلك ، فرمى بقوسه وأمكنهم من نفسه .

خبر أمير المؤمنين عمر مع الهرمزان :

وأوفد أبو سبرة بن أبي رُهم قائد المسلمين في تلك المعارك وفدًا
إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وأرسل معهم الهرمزان ، حتى
إذا دخلوا المدينة هيئوا الهرمزان في هيئته ، فألبسوه كسوته من
الديباج الذي فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجًا يُدعى الأذنين
مكَلَّلًا بالياقوت وعليه حلите ، كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته ،
ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله فلم يجدوه ، فسألوا
عنه فقيل لهم : جلس في المسجد لوَفَدَ قدموا عليه من الكوفة ،
فانطلقوا يطلبونه في المسجد ، فلم يروه ، فلما انصرفوا مرُّوا بغلمان
من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ماتلُدُّكم ؟ [يعني لماذا تلتفتون
يمينًا وشمالًا] ؟ أتريدون أمير المؤمنين؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد ،
متوسدًا برنسه - وكان عمر قد جلس لوَفدَ أهل الكوفة في برنس فلما
فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثم توسده فتام -
فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه وليس في المسجد
نائم ولا يقظان غيره ، والدِّرة في يده معلقة .

فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هوَ ذَا ، وجعل الوفد

يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان إلى الوفد فقال : أين حرسه وحُجَّابُه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان ، قال : فينبغي له أن يكون نبيا ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء ، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال : الهرمزان ؟ قالوا : نعم ، فتأمله وتأمل ماعليه وقال : أعوذ بالله من النار ، واستعين الله ، وقال : الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه ، يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين ، واهدوا بهدي نبيكم ﷺ ، ولا تُبْطِرْكُمْ الدنيا فإنها غرارة .

فقال الوفد : هذا ملك الأهوار فكلمه ، فقال : لا ، حتى لا يبقى عليه من حلته شيء فرمى عنه بكل شيء عليه إلا شيئا يستره ، وألبسوه ثوبا صفيقا ، فقال عمر : هيه يا هرمزان ! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقال : ياعمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا ، فقال عمر : إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ، ثم قال عمر : ماعذرك وماحجتك في انتفاضك مرة بعد مرة ؟ فقال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك ، قال : لاتخف ذلك ، واستسقى ماء ، فأتي به في قدح غليظ ، فقال : لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا ، فأتي به في إناء يرضاه ، فجعلت يده ترجف ، وقال : إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء ، فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه ، فأكفاه فقال عمر : أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش ، فقال : لاجاجة لي في الماء ، إنما أردت أن أستأمن به ، فقال له عمر : إني قاتلك ، قال : قد آمنتني ، فقال :

كذبت ، فقال أنس : صدق يا أمير المؤمنين ، قد آمنت ، قال :
ويحك يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزأة والبراء ، والله لتأتين بمخرج
أولأعاقبك ، قال : قلت له : لا بأس عليك حتى تخبرني ، وقلت :
لا بأس عليك حتى تشربه ، وقال له من حوله مثل ذلك ، فأقبل
على الهرمزان وقال : خدعتني ، والله لا أنخدع إلا لمسلم ، فأسلم ،
ففرض له على ألفين ، وأنزله المدينة (١) .

وإننا لنخلص من هذا الخبر بمواقف عظيمة نلاحظ منها تواضع
أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث نام وحده في المسجد بلا فراش
وهو أمير المؤمنين وحاكم أعظم دولة في العالم آنذاك ، وإن هذا دليل
على منتهى التواضع والتجرد من حظ النفس .

إن تصور هذا المشهد ليوحى لنا بتفوق أخلاقي لانظير له إلا في
حياة الأنبياء عليهم السلام والصديقين ، فما الذي حمله على كبح
جماح نفسه نحو الترفع والعلو وهو يملك جميع مقومات ذلك ؟

وما الذي حمله على حياة الزهد حتى أصبح يقوى على النوم
على الأرض وهو يملك استخدام الفرش الوثيرة والأثاث الفاخر ؟

وما الذي حمله على أن يرضى لنفسه أن ينام في المسجد وهو
الذي يملك بناء أفخم القصور ، واختيار أبعد الأماكن عن الجلبة
والضجيج ؟

إنه الإيمان الراسخ واليقين القوي بأن ما عند الله خير من الدنيا
وما فيها ، وأن حياة الزهد والتواضع هي التي تقرب من رضوان الله

(١) تاريخ الطبري ٨٥/٤ - ٨٨ .

تعالى، وهو الهدف الإسلامي الواضح الذي أثنى الله به جل وعلا على أولئك الصحب الكرام ﴿يَتَغَوْنَ فُضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً﴾ [الفتح: ٢٩]

ثم ما الذي أعطاه الأمان والسلامة حتى ينال وحده في المسجد وهو الذي دوخ أمم الأرض وانتزع ملكهم ، ومرغ سمعتهم في التراب، وأذل المنافقين ، وحملهم على منتهى التستر والاختفاء ، وأخذ الحق من الظالمين، وأوطأهم على الاستقامة حتى أصبح لا يطمع قوي في باطل ، ولا يهاب محق من نيل حقه غير متعنت ولا مستضعف؟ إن الذي أعطاه الأمان والطمأنينة هو إيمانه الكامل بقضاء الله وقدره، ثم عدله الذي أصبح مضرب الأمثال على مدار التاريخ، وإن كون العدل في الحكم محط الأمان والسلامة أمر متفق عليه بين العقلاء، ولذلك قال الهرمزان لما رأى عمر نائماً في المسجد: عدلت فأمنت فنمت، وذلك أن الحاكم العادل لا يخشى من أمته أن يخونوه ، لأن جميع الذين ينشدون العدل من رعيته يصبحون حراساً أوفياء له ، وكذلك الذين تُستخلص حقوقهم على يديه فإنهم قد يُفنون أنفسهم من أجله، ويفدونه بكل ما يملكون ، أما الذين يُلزمهم بالحق من أصحاب الهوى والجنوح نحو الظلم فإن الله سبحانه ينزل في قلوبهم مهابة من يحملهم على الحق والرغبة منه ، ثم لا يلبث من أراد الله له الهداية منهم حتى يحبه من قلبه ويتمنى أن يفديه بنفسه وماله .

ولذلك نص الهرمزان على العدل وحده كسبب في أمن عمر الذي حمله على النوم في المسجد ، لأن الهرمزان وأمثاله من الكفار لا يعرفون قضاء الله وقدره ولا يؤمنون به .

ومع أن الهرمزان قد نسب ذلك الأمن القوي إلى العدل ، فإنه عبّر بما يفيد بأنه حتى مع العدل لا يصل الأفراد العاديون إلى مثل هذا الأمن ، ولذلك قال عن عمر : ينبغي له أن يكون نبيا ، وذلك لما تواتر في عرف الأمم أن الأنبياء عليهم السلام معصومون بحماية الله تعالى .

ومن المواقف العالية في هذا الخبر إعزاز الإسلام وإذلال الكفر وأهله ، وذلك يتمثل في المشاهد التالية :

١- قول عمر حينما رأى الهرمزان وسأله عنه : أعوذ بالله من النار وأستعين بالله ، فقد ذكر النار حالا لما رأى الهرمزان وهو بلباس الجبارين ، وعمر يعلم أن الله تعالى أعد النار لمثل هؤلاء . كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ، قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها » (١) .

فأهل النار كما جاء في هذا الحديث المتكبرون وهم الذين يتعالون بأنفسهم عن قبول الحق ، ويحتقرون من هم دونهم في مظاهر الدنيا

(١) صحيح البخاري ، التفسير رقم ٤٨٥٠ (٨/ ٥٩٥) ، صحيح مسلم ، كتاب الجنة رقم ٢٨٤٦ ، (ص ٢١٨٦) .

كما جاء في قول النبي ﷺ « الكبر بطر الحق وغمط الناس » (١) ، والمتجبرون هم الطغاة الذين تجاوزوا حدودهم فبغوا في الأرض وظلموا .

أما أهل الجنة فهم ضعفاء الناس وسقطهم ، يعني في نظر أهل الدنيا لتواضعهم وزهدهم في مظاهر الدنيا التي يتنافس الناس عليها ، فتسقط منزلتهم عند أهل الكبرياء والسرف ولكنهم عند الله تعالى وعند المتقين منزلتهم عالية .

وفي قول عمر « وأستعين بالله » طلبُ العون من الله تعالى على مواجهة هذا الموقف والصبر في مخاطبة المتصفين بصفات أهل النار ، وهذا إدراك إيماني رفيع ، فالإنسان مهما كان من العقل والرفعة ضعيف محدود الطاقة من غير عون من الله تعالى ، فتذكر الاستعانة بالله جل وعلا في جميع الأمور - وخاصة المهم منها - يعتبر من الفقه في الدين والرسوخ في الإيمان .

وفي ذكر النار والاستعاذة بالله منها إذلال للكفر وأهله حيث يستقر في الأذهان أن الكفار مهما بلغوا من الرفعة في الدنيا فإن مصيرهم في الآخرة إلى النار ، وما قيمة الدنيا المحدودة الفانية بكل ما فيها من رفعة وجبروت إذا كان مصير أهلها في دار الخلود إلى النار ، كما أن في ذلك إعزازاً للإسلام وأهله حيث يستقر في الأذهان أن المسلم وإن كان فقيراً مستضعفاً في الدنيا فإن مصيره في دار الخلود إلى الجنة ، وإنما العبرة في ميزان العقلاء بدار الخلود لا بدار الفناء .

(١) صحيح مسلم ، الإيمان رقم ٩١ (٩٢) .

٢ - قول عمر : « الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه »
الخ فهذا صريح في بيان عزة الإسلام وأهله وأن الإسلام يُعز الله به
المسلمين ، ويذل به الكفر وأهله .

فالإسلام يمنح المسلم قوة عظمى يتفوق بها على جميع البشر حتى
لو كان في مقام الضعف المادي ، ولكن ضعف إيمان بعض المسلمين
يجعلهم يشعرون بالدلة أمام الكفار ، فيكونون بواقعهم السيء المنافي
للإسلام سبباً في اعتزاز الكفار وإيغالهم في الطغيان والجبروت .

وقد ركز عمر على الوصية بالتمسك بهذا الدين وعدم الاغترار
بالدنيا ، وذلك لأن الاغترار بالدنيا والابتعاد عن هدي الله تعالى هو
الذي جر الأمم إلى حياة السرف والترف ثم إلى الانهيار في الدنيا ،
والهلاك في الآخرة .

٣ - قول عمر حينما طلب منه الوفد أن يكلم الهرمزان « لا ،
حتى لا يبقى عليه من حليته شيء » وهو بيان صريح في إذلال أبهة
الدنيا ومظاهرها الكاذبة التي تكونت وتراكت بسبب الكفر والبعد عن
الصراط المستقيم ، ومادام الكفار يعتزون بهذه المظاهر ويعتبرون أنها
مثبتة لوجودهم وملازمة لعزهم فليرفضها المؤمنون وليُظهروا عزة
الإسلام الذي كرمهم الله به ، وليُلزموا الكفار برفض مظاهرهم التي
يعتزون بها ما داموا يريدون المفاوضة والحوار مع المسلمين .

إن بقاء الكفار في مظاهر الأبهة من الملابس والمراكب والمساكن قد
يجر المسلمين إلى محاكاتهم في ذلك لئلا يكونوا أقل في أنظار الكفار
وعامة المسلمين منهم ، وفي هذا انحراف خطير عن خط الاستقامة

الذي سار عليه الصحابة رضي الله عنهم بتوجيه النبي ﷺ وتربيته لهم، وإن بقاء المسلمين في مظهر أدنى من الكفار قد يضعف المسلمين أمامهم في حال الحوار والتفاوض على أمر من أمورهم المشتركة .

ولهذا وغيره من المعاني السامية رفض عمر رضي الله عنه أن يخاطب الهرمزان وهو في لباس الأبهة والكبرياء .

٤ - قوله « أنا أؤمّن قاتل مَجْزَأة والبراء ! » يعني مجزأة بن ثور والبراء بن مالك ، وهما بطلان من أبطال المسلمين مر ذكر شيء من مآثرهما فيما مضى ، ويكفي لمعرفة أثرهما في نصر الإسلام والنكاية بالأعداء أن كل واحد منهما قتل في معارك تُستَر مائة من الأعداء مبارزة، وقد قتلها الهرمزان لما غامرا بالدخول من مخرج الماء مع مجموعة من الأبطال ، وكان الهرمزان ماهراً في الرماية فأصابهما .

وفي ذكر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لهما إغزاز للمسلمين وتقدير لأهل التقدم والبلاء في الإسلام حيث اعتبر قتل الهرمزان لهما مانعا من العفو عنه .

٥ - قول عمر « خدعتني والله لا أنخدع إلا لمسلم » فيه إظهار لعزة الإسلام ، فالمسلم إذا خُدع من مسلم فإنخدع له فليس في ذلك خفض لمنزلته ولا إهانة لكرامته كمسلم ، لأنه قد انخدع لأخيه في الإسلام، وهو وإياه يشكّلان جزأين من جسم واحد ، فكرامته الإسلامية لم تُجرح، لأن من خدعه مسلم وكلاهما يعتز بالإسلام .

فأما حينما تكون الخديعة من كافر أو منافق فإن المقصود الأول بذلك هو إهانة الإسلام ، فلا يجوز لمسلم أن ينخدع لكافر حتى لو

خالف ما وعده فيه وما اتفق عليه معه ، لأن الكافر سيعتز عليه بنصر
مبدئه الكفري في مقابل هزيمة إسلامه .

وإنه لإلهام عظيم من الله تعالى لعمر ، وفقه دقيق في فهم الولاء
والبراء ، والعلاقات بين المسلمين والكفار .

ولما رأى ذلك الهرمزان أسلم فقبل عمر إسلامه وفرض له ألفين
من العطاء ، وهكذا يظهر الفرق العظيم بين الكفر والإسلام ، فحينما
كان كافراً كان محكوماً عليه بالقتل لسيئاته التي ارتكبها ضد المسلمين ،
ولما أسلم كان موضع التكريم ، وفُرض له من العطاء ما يفرض
للمسلمين .

عمر يستشير الهرمزان :

أخرج الإمام الطبري بإسناده عن زياد بن حدير قال : حدثني أبي
أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للهرمزان حين آمنه : لا بأس ،
انصح لي ، قال : نعم ، إن فارس اليوم رأس وجناحان ، قال : وأين
الرأس؟ قال : بنهاوند مع بندار فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان
قال : وأين الجناحان؟ فذكر مكانا نسيته ، قال : فاقطع الجناحين يَهْنُ
الرأس ، فقال عمر : كذبت يا عدو الله ، بل أعمد إلى الرأس
فأقطعه ، فإذا قطعه الله لم يعص عليَّ الجناحان (١) .

فهذا مثال مهم لليقظة والنباهة وأخذ الحيلة والحذر من أعداء
الإسلام وإن أسلموا ظاهراً ، فالإسلام يعصم دماءهم وأموالهم ،
ويكفل لهم سائر حقوقهم ، ولكن لا يترتب على ذلك وضع الثقة

(١) تاريخ الطبري ١١٧/٤ .

بهم ، حتى يتبين بجلاء ويقين صدق إيمانهم ، لأن صدق الإيمان يقتضي البراءة التامة من الكفار ، والولاء التام للمسلمين ، ومن كانت هذه حاله لا يُتَظَر منه أن يغش المؤمنين ، أما عند الشك في ذلك فإن أخذ الحيطة والحذر واجب حتى لا يُؤْتَى المسلمون على غرة من أعدائهم .

* * *

٥ - فتح مدينة جُنْدَي سَابور -

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما فرغ أبو سبرة - يعني ابن أبي رهم - من السوس - يعني من فتح بلاد السوس - خرج في جنده حتى نزل على « جُنْدَي سَابور » وَزَرَ بن عبد الله بن كليب محاصرههم ، وأقاموا عليها يغادونهم ويرأحونهم القتال ، فمزالوا مقيمين عليها حتى رُمِيَ إليهم بالأمان من المسلمين ، وكان فتحها وفتح نهاوند في مقدار شهرين ، فلم يفجأ المسلمين إلا وأبوابها تُفْتَح ، ثم خرج السرح ، وخرجت الأسواق ، وأنبث أهلها ، فأرسل المسلمون أن مالكم ؟ قالوا : رميتم إلينا بالأمان فقبلناه ، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا ، فقالوا : مافعلنا ، فقالوا : ماكذبنا فسأل المسلمون فيما بينهم ، فإذا عبد يُدعى مكثفاً كان أصله منها ، هو الذي كتب لهم ، فقالوا : إنما هو عبد ، فقالوا: لا نعرف حُرُكَم من عبدكم ، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدلْ فإن شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فكتب إليهم : إنَّ الله تعالى عَظَّمَ الوفاء ، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا ، مادمتم في شك أجيزوهم وفؤا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم^(١) .

أقول : وإن هذا مثل عظيم من أمثلة تحري المسلمين ودقتهم في إبراء الذمة ، واجتناب الظلم ، والظهور أمام العالم في صفحة بيضاء ليس في ثناياها ما يسودها ويشوه بهاءها .

ولقد كان المسلمون مترددين بين أن يَمْضُوا ذلك الأمان الذي قام

(١) تاريخ الطبري ٩٣/٤ - ٩٤ .

به رجل واحد منهم كان أصله من أهل تلك البلدة ، وقد صنع شيئاً أراد به نفع قومه ، وبين أن يعتبروا أن ذلك الأمان لم يكن عن مشورة منهم ولا قرار من أميرهم فليلغوه ، ولكن قطع ذلك التردد أمر عمر رضي الله عنه القاطع بامضاء ذلك الأمان ، وهذا يدل على شدة ورعه ودقة نظره وتقديره لعواقب الأمور ، وخوفه الشديد من أن يقع المسلمون في شيء من ظلم أعدائهم فيكون سبباً في إدالتهم عليهم عقوبة لهم على الظلم .

وهذا وأمثاله يبين لنا تفوق المسلمين الشاسع في مجال مكارم الأخلاق على جميع أعدائهم من الكفار .

ولاشك أن هذا التفوق الأخلاقي كان من الدوافع الأساسية لدخول الكفار في الإسلام بتلك الكثافة والسرعة المذهلة .

ولاننسى التنويه بثبت المسلمين وأناتهم حيث لم يغتنموا فرصة فتح الأبواب في هجوم مباغت على أعدائهم لأنهم يدرؤون الناس عن القتال ما أمكنهم ذلك ، فهم هداة للبشرية ، وليسوا تواقين لسفك الدماء ، وإنما يلجئون إلى ذلك اضطراراً ، حينما يتحكم الطغاة في مصائر الشعوب ويحولون بينهم وبين إبصار نور الهداية ، فلابد والحالة هذه من إزاحة تلك العراقيل التي تحجب الرؤية وتهيمن على عقول الناس المغلوبين على أمرهم ليبصروا الأمور على حقيقتها حينما يكونون أحراراً في تفكيرهم .

- النعمان ومدينة « كسكر » -

أخرج الإمام الطبري رحمه الله من حديث أبي وائل رحمه الله قال: كان النعمان بن مقرن رضي الله عنه على «كسكر» - يعني واليا عليها- فكتب إلى عمر رضي الله عنه : مثلى ومثل كسكر كمثلى رجل شاب وإلى جنبه مؤمسة تلون له وتعطر ، فأشُدك الله لما عزلتني عن كسكر ، وبغثتني إلى جيش من جيوش المسلمين ، قال: فكتب إليه عمر: أن انت الناس بنهاوند ، فأنت عليهم (١) .

وهذه همة عالية وتطلع كبير ، فالنعمان لا يريد إدارة منصب يكتسب منه الجاه في الدنيا ، وهو وإن كان سيحصل على الأجر الأخروي بمشيئة الله تعالى ، لأنه ممن يريدون بعملهم وجهه جل وعلا ، إلا أنه يريد عملاً أكثر مشقة وأعظم تضحية ، وبالتالي يكون أكثر أجراً في الآخرة .

إن الآخرة هي ميزان أعمالهم ، فلا يستريحون إلا في العمل الذي يضمن لهم أكبر قدر من رضوان الله تعالى ، وثوابه العظيم في الآخرة .

ولذلك نجدهم يتسابقون إلى الجهاد ، لما فيه من الأجر العظيم ، ولما ينطوي عليه من احتمال الحصول على الشهادة التي هي غاية أمني المؤمنين الصادقين .

* * *

(١) تاريخ الطبري ١٢٦/٤ .

٦ - مشكلة وحلها -

(شكوى أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص)

اجتمع نفر من أهل الكوفة بزعامة الجراح بن سنان الأسدي فشكوا أميرهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين عمر ، وذلك في حال اجتماع المجوس في نهاوند لغزو المسلمين ، فلم يشغلهم مادهم المسلمين من ذلك .

ولقد كان سعد عادلاً رحيماً بالرعية قوياً حازماً على أهل الباطل والشقاق ، عطوفاً على أهل الحق والطاعة ، ومع ذلك شغب عليه هؤلاء القوم ، فمن لا يطبقون حكم الحق ويريدون أن يحققوا شيئاً من أهوائهم .

وقد وقتوا لشكواهم وقتاً رأوا أنه أدعى لسماع أمير المؤمنين منهم حيث كان المسلمون مقبلين على معركة مصيرية تستدعي اتفاق كلمة المسلمين وتظافر جهودهم في مواجهتها ، وحيث كانوا يعلمون اهتمام عمر الشديد باجتماع كلمة المسلمين دائماً ، وخاصة في مثل تلك الظروف ، فرجوا أن يفوزوا ببغيتهم .

وقد استجاب أمير المؤمنين لطلبهم في التحقيق في أمر شكواهم مع علمه بأنهم أهل هوى وشر ، ولم يكتهم اعتقاده فيهم ، بل صرح لهم بذلك ، وبين لهم أن اعتقاده بظلمهم لواليتهم وتزويرهم الحقائق لا يمنعه من التحقيق في أمرهم ، واستدل على سوء مقصدهم بتوقيتهم السيء حيث قال لهم : « إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعداد ، وإيم الله لا

يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم » .

فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للأعاجم ، والأعاجم في الاجتماع ، - وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذي يقتصر آثار من شكي زمان عمر - فقدم محمد على سعد ليطوف به في أهل الكوفة ، والبعوث تُضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند ، فطوف به على مساجد أهل الكوفة ، لايتعرض للمسألة عنه في السر ، وليست المسألة في السر من شأنهم إذ ذاك .

وفي هذا بيان لمنهج الصحابة رضي الله عنهم في التحقيق في قضايا الخلاف التي تجرى بين المسئولين ومن تحت ولايتهم ، فالتحقيق يتم في العلن ، وذلك بحضور المسئول والذين هو مسئول عنهم .

وكان لايقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا قالوا : لانعلم إلا خيرا ولانشتهي به بدلا ، ولانقول فيه ولانعين عليه ، إلا من مالا الجراح بن سنان وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون لايقولون سوءا ، ولايسوغ لهم ، ويتعمدون ترك الثناء ، حتى انتهوا إلى بني عبس . فقال محمد : أنشد بالله رجلا يعلم حقا إلا قال ، قال أسامة بن قتادة : اللهم إن نشدتنا فإنه لايقسم بالسوية ، ولايعدل في الرعية ، ولايغزو في السرية ، فقال سعد : اللهم إن كان قالها كذبا ورثاء وسمعة فأعزم بصره ، وأكثر عياله ، وعرضه لمضلات الفتن ، فعمي ، واجتمع عنده عشر بنات ، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسها ، فإذا عثر عليه قال : دعوة سعد الرجل المبارك .

قال : ثم أقبل - يعني سعد - على الدعاء على النفس ، فقال :

اللهم إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً وكذباً فاجهد بلاءهم ، فجهد
بلاءهم ، فقطع الجراح بالسيوف يوم ثاور الحسن بن علي ليغتاله
بسباط ، وشُدخ قبيصة بالحجارة ، وقتل أربد بالوجء - يعني
الضرب - بنعال السيوف - يعني بأعقابها - .

هذا وإن في هذا الخبر نموذجاً من معية الله تعالى لأوليائه المتقين
حيث استجاب الله تعالى دعوة سعد على من ظلموه فأصيبوا جميعاً
بما دعا عليهم به .

وإن في استجابة الله تعالى دعاء سعد وأمثاله لوئاً من العناية
الإلهية بأولياء الله المتقين ، فكم خاف المبطلون من هذا السلاح الخفي
الذي لا يملكون بكل وسائلهم المادية مقاومته ولا الحد منه .

وكون هؤلاء الذين دعا عليهم سعد خُتم لهم بالخاتمة السيئة دليل
على تمكن الهوى والشر من نفوسهم حتى أدى بهم ذلك إلى المصير
السيء .

ودافع عن نفسه سعد فقال : إني لأول رجل أهرق دمًا من
المشركين ، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه ، وما جمعهما لأحد
قبلي - يعني حينما قال له يوم أحد : إرم فداك أبي وأمي - ولقد
رأيتني خُمس الإسلام ، وبنو أسد تزعم أنني لا أحسن أن أصلي وأن
الصيد يلهيني .

قال : وخرج محمد به وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره
الخبر ، فقال : يأسعد ويحك كيف تصلي ؟ قال : أطيل الأوليين
وأحذف الآخرين ، فقال هكذا الظن بك .

ثم قال : لولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا ، ثم قال : من خليفتك ياسعد على الكوفة ؟ فقال : عبد الله بن عبد الله بن عتيان فأقره واستعمله» (١) .

وقول عمر رضي الله عنه « لولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا » يعني قد اتضح أمرهم ، وأنهم ظالمون جاهلون ، وظهرت براءة سعد مما نسبوه إليه ، ولكن الاحتياط لأمر الأمة يقتضي درء الفتن وإماتها وهي في مهدها قبل أن تستفحل فتسبب الشقاق والفرقة وربما القتال .

وإذا كان من أسباب القضاء على الفتنة تغيير المسئول فليتم ذلك وإن كان المسئول المدعى عليه بريئاً مما نسب إليه ، فإن ذلك لا يضره بشيء وقد برئت ساحته مما نسب إليه من التهمة ، وقد كانوا يفهمون الولاية مغرماً لامغناً ، وتكليفاً يرجون به ثواب الله تعالى ، فالولاية على أمر من أمور المسلمين نوع من الأعمال الصالحة لمن اتقى الله تعالى وأراد رضوانه والدار الآخرة ، فإذا تحول هذا العمل إلى مصدر للفتنة فإن الحكمة تقتضي عدم الاستمرار فيه ، كما هو الحال في هذه الواقعة ، ولكل حادث حديث ، وهذا هو ما أقدم عليه عمر حينما أعفى سعداً من العمل ، وكلف نائبه الذي هو موضع ثقة سعد ، حيث أدرك عمر أن الذين تقدموا لشكاية سعد أصحاب هوى ، وليسوا طلاب حق ، ومن كانوا كذلك فإنهم سيستمرون في المشاغبة ، وسيؤلبون معهم من هم على شاكلتهم ، فيحدثوا فرقة في الجماعة ، وذلك يؤثر على وجود المسلمين وتماسكهم سواء في السلم أو الحرب .

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٢٠ - ١٢٢ .

أما إذا كانوا مجتهدين في طلب الحق فمن السهل إقناعهم بما يتفق مع كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ حيث إنهما المرجع عند التنازع، ثم لن تحصل بعد ذلك فتنة ببقاء المسئول المدعى عليه .

* * *